

اقرأ

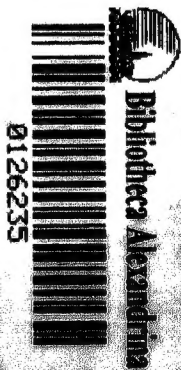
عبد الفتاح رزق

مسافر على الموج

ورحلات أخرى



دار المعارف



اقرأ

[٥٣٤]

مسافر على الموج

... ورحلات أخرى

عبد الفتاح رزق

مُساَفر على الموج

.. ورحلات أخرى

(الكتاب الحائز على جائزة الدولة)



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١٦٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

في البداية عبرت الأفق!

منذ زمن بعيد وأنا أصادق ذلك الأفق، ذلك البحر، أنظر إليه دون ملل، لا أتخيل وراءه أرضاً، أعتبره الخيال نفسه، الرحابة، الامتداد اللانهائي، العناق مع السماء، مهبط الشمس عند الغروب. ومنذ ذلك الزمن البعيد وعلاقتي معه تقف عند حدود التأمل، يغضب ويهدأ، يعطى ويأخذ. لا يهم ان يداعب موجه قارباً أو سفينة. لا يهم ان يحاوره طائر النورس، عندما أغيب عنه وأعود يستقبلني بهدير عتاب، وينسمة شوق!

وفي ذلك الصبح كنت على موعد معه... ولكن دون تأمل. وقفت أحادثه، وأستأذنه في أن أخرج النهار نفسه سأكون ضمن ركاب سفينة تقول على الأوراق إنها ذاهبة إلى جانبه الآخر، إلى أكثر

من شاطئ.. هناك.. حيث يوجد وراء الأفق عالم آخر، ناس، وجبال. وكل مفردات علم الجغرافيا.

وحتى بعد أن صعدت درجات السفينة كنت ماأزال لا أصدق، صديق البحر نهايته الأفق، ومهما أبحرت السفينة فلن تدرك الأفق! وهم ما تقوله الأوراق، وهم ما تريده السفينة.

ونزلت إلى بطن السفينة وكأنى ألقى بنفسى إلى أعماق الوهم! بطن السفينة «سينتيا» كأنه بيت جحاً، سراديب ودهاليز. ثرات صغيرة ودرجات كثيرة، وفات وقت طويل قبل ان أعرف أسرارها، وأنها فى النهاية مسالك مثل تلك التى كنا نعرفها عندما كنا نطوى ورقة ونحن صغار لتأخذ شكل قارب ثم نلقى بها إلى الماء لتسطفو فوقه، وحين عرفت المكان الذى سأركن إليه عندما أرغب فى النوم، وحين تأكدت أن به طاقة تطل على الخارج - لم تكن تطل على صديق البحر بعد - قررت الصعود إلى ظهر السفينة.. ووقفت مشدوها..

الوهم يتحرك بـ وبالأخرين وكأنه الحقيقة، رصيف ميناء الإسكندرية يبتعد ويبتعد، مقدم السفينة يداعب صدر صديق البحر ويجوس فوقه. كل سنوات التأمل تدخل الآن الامتحان، ليست هناك الصرخات التقليدية لقائد السفينة، وليست هناك الخطوات العجلى لمن ينفذون الأوامر، السفينة «ماشية» دون صخب وضجيج، تبحر فى عناد - ربما تخصنى أنا به - صوب الأفق، اجتازت البوغاز

وأصبحت مركزاً لحركة دائبة لا يعنيتها أن الماء يحيط بها من كل جانب، أنا الآن في قلب التجربة لأول مرة، سافرت كثيراً ولكني لم أركب البحر، فهل أنا قادر الآن على التأمل وأنا بعيد عن شاطئه؟ ماذا يقول صديق البحر لو حادثته الآن؟ ماذا ترد به على أمواجه وأنفاسه ورحابة أفقه؟، في الصباح استأذنته في أن أذهب إلى جانبه الآخر، فهل أصبح على في المساء أن أعتذر؟!

الشمس غابت دون أن أشهد لحظة اختفائها هناك حيث تذهب إلى السفينة، زرقة الماء تحالطها العتمة، ولكنها تظل تتحرك وتتحرك، فرق كبير بين أن تسير عربة فوق أرض ثابتة، وأن تتحرك سفينة فوق سطح الماء، حركة فوق حركة. صديق البحر لم يستسلم بعد، لو تطلعت بنظرات بعيدة فسأرى ما كنت أراه نفسه طوال عمري، الأفق هناك.. مازال هناك. لن تضع في الحسبان خطوات التأمل، وفيها موجة عالية مع زميلة لها أعلى منها، ابتسمت وأنا أتخيل أن صديق البحر يتسم معي، سمعته يقول في ثقة تطاول أقصى قوة: «أنت الآن في ورقة مطوية»!

«أنت الآن - والآخرين معك - ضيوف عندي وربما لا تكونون من الضيوف»!

«عموماً.. مرحباً بك في بيتي.. في عرض البحر»!

* * *

نداءات الميكروفون كثيرة، وركاب السفينة الواحدة مازالوا بالنسبة لبعضهم البعض أغراباً، ألتقط من «الميكروفون» الكلمة التي تقول إننا سنمر في الصباح على جزيرة «كريت»... كل ما أعرفه عن كريت هو موقعها وسط البحر وراء الأفق، وتلك اللعبة المشهورة من ألعاب المنطق، واللعبة من اختراع أهل كريت أنفسهم وكلهم من الإغريق، إذا كان معروفاً أن أهل كريت كذابون، فإذا تكون النتيجة إذا قال واحد كريتي إنه «كذاب» فهو كذلك فعلاً، أم أنه بأساس كونه كريتيًا ليس صادقاً، وبالتالي فهو ليس كاذباً؟.. لعبة.. والسفينة مثلها الآن وقد لفها من الخارج ظلام الليل ووشوشة الموج، لا أريد أن أبرح مكاني عند ذلك السور والصورة حول تكتمل فيها الرومانسية إلى أبعد الحدود.. القمر.. وشعاعاته.. والموج.. الموج الكثير.. والحركة فوق الحركة.. وتلك الأنغام الموسيقية الناعمة، الخافتة، التي تنبعث من «صالون» السفينة.. لا مفر.. أنت مسافر الآن على الموج، لا مفر.. العناد يدخل في سباق للوصول إلى الأفق، ولعبوره.. لا مفر!..

يحدثني الواقف إلى جوارى عند السور دون سابق معرفة، يقول دون أن أتبين ملامحه: «انتم محظوظون. البحر يستقبلكم في وداعة.. وهذه ليست عادته».

والتفت إلى الرجل في اهتمام بالغ، صديق آخر للبحر مثلي، لابد أن يكون كذلك، وإلا فلماذا اختار هذه الكلمات بالذات،

ملاحه تقول إنه ليس مصرياً والأخايد في وجهه تقول إنه فوق
الستين، وأقول له: «وهل يثور البحر في مثل هذا الوقت من
السنة؟».

ويقول الرجل في بساطة: «البحر لا يعرف الصيف والشتاء. إنه
غامض ومغرم بالمفاجآت.. وفي رحلة سابقة لى...».

لم أكن متنبهاً لبقية كلماته، سيفرقنى في الحكاية المحفوظة عن
الموج الذى يطاول السحاب، وعن السفينة التى تتأرجح كلعبة في
مهب الريح. كنت متجهاً بكل اهتمامى إلى أبعاد الصورة الرومانسية،
وعندما عدت إليه بنظراتى لم أجده إلى جوارى!

أبتسم للخاطر، وأنا أنسحب من الشرفة، إننى سأترك صديق
البحر للمحظات، كيف أتركه، ومهما صعدت أو نزلت فأنا داخل
الورقة المطوية الطافية الآن فوق صدره!؟

أنزل إلى القمرة التى سأنام فيها حتى يأتى الصباح، القمرة بها
سريران، أحدهما يعلو الآخر. وأجد من يقدم نفسه لى على أنه زميلى
في الحجرة، يقول فى كلمات مرجبة:

«معدرة فقد اخترت السرير الأرضى.. استعداداً للطوارئ».

وأتساءل فى دهشة كبيرة: أى طوارئ؟

ويرد ببساطة:

«لم أقدم لك نفسى.. أنا الدكتور عادل.. طبيب الباخرة»!

طبيب الباخرة معى فى حجرة واحدة!!

وأسرعت أصدد السله الخشبي الصغير إلى سريري العلوى وأنا
أحييه تحية المساء، ولم تمر لحظات حتى قلت دون تردد: «هل تمانع
في أن تظل الطاقة مفتوحة طول الليل؟».

ورد في ترحاب:

«أبدًا. ومن يكره هواء البحر»!

ولفتني سعادة كبيرة وقد أصبح في مقدوري أن أرى صديق
البحر حتى وأنا مستلق في انتظار النوم.

وهمست لصديق البحر: إلى اللقاء فجرًا.

وردت أمواجه: إلى اللقاء.. وإن كنت سأظل ساهرة!



نور الفجر يوقظني من الطاقة.

خط وهمي يقسم الطاقة نصفين، دائرة نصفها العلوى زرقاء
السما. ونصفها الآخر زرقاء البحر، وأسرع بارتداء ملابسى وأصعد
إلى ظهر السفينة، الصورة الآن تختلف عن الصورة في الليل، كل
شيء يلفه الضوء الباهر الذى لا تكسره أية ظلال. سماء وبحر. وبحر
وسماء. وقبل أن تطول وقفى أسمع الصوت نفسه الذى سمعته عند
السور في الليل، والرجل الذى تخطى الستين. وفى هذه المرة كان
يقول فى وداعة وكأنه يقرأ أفكارى: «فرق كبير بين زرقاء الماء وزرقاء
السما.. زرقاء الماء هى الزرقاء التواقفة للعناق مع الأصفر ليتوالد

اللون الأخضر.. أما زرقة السماء فهي الطليقة الراضة لأى قيد!
وأستقبل كلماته فى ترحاب، أدعاه يقدم نفسه، المهندس
جويجوار.. يونانى يقيم فى الإسكندرية وعائلته بزوجته المريضة لزيارة
أهلها فى أثينا.. ثم يقول: «ولذلك فسأترككم فى «بيري» لأن بيريه
إن كنت لا تعرف بينها وبين أثينا نصف ساعة بالسيارة»!

وسألته: ومتى سنمر على جزيرة كريت؟
وقال: قبل أن نمر على كريت، سنمر على جزيرة أخرى صغيرة
اسمها «كانديا».. ولا بد ألا تفوتك مشاهدتها..

بعد لحظات استأذن ليطمئن على زوجته المريضة، وأحسست أن
وقفى هنا قد لا تتيح لى فرصة مشاهدة الجزيرة الصغيرة. أو حتى
الأخرى الكبيرة، والتفت ورائى، فرأيت سلفاً آخر يقود إلى قبة
السفينة. وصعدت ودون تردد وجدت مكاناً صغيراً لا يتسع إلا
لكرسى واحد يمكن أن أضعه بين قاربي إنقاذ وجلست أتطلع من
جديد إلى صديق البحر وأنتظر جزيرته الصغيرة التى ستبزغ حالا
وسط الموج.

طال انتظارى وأنا أحمل شعاعات الشمس اللافحة فى عناد،
وعندما حاولت الوقوف لم أستطع، أحسست بثقل شديد يشدنى من
رأسى، وأن قدمى لا تقدران على حملى، وهزئت رأسى فى أمل ان
أفبق من وهم أننى أخيراً أصبت بما كنت أخاف منه.. دوار البحر.
المشكلة الآن هى أن أصل إلى حجرق، فهناك سأجد طبيب

الباخرة.. وزميلي في الحجرة. وتحاملت لأسير خطوات، ولأنزل سلمًا وراء الآخر، وقبل أن أدرك الردهة التي تقود إلى حجرتي، رأيته واقفًا يعترض طريق.. المهندس جريجوار.. وقال لي على الفور: «ماذا بك؟» خطواتك تبدو مترنحة».

وقلت على الفور: «لا شيء.. كنت أنتظر رؤية جزيرة كانديا.. أو كريت.. لا أعرف.. هناك أعلى السفينة..» وعاد يقول: «وهل كنت طوال ذلك الوقت معرضًا نفسك للشمس دون أي ظل؟».

ورددت: «نعم.. وماذا في ذلك؟» وقال: «أبداً.. إنك بذلك قد تعرض نفسك لضربة شمس.. وخاصة أنك لا تضع شيئًا فوق رأسك!» هزئت رأسي مستنكرًا ما يقوله، وإن كنت قد أدركت فعلاً أنني أصبت بضربة شمس.. والسبب.. جزيرة كريت.

وقبل أن أتركه لأذهب إلى حجرتي وأنشد العلاج عند زميلي في الحجرة الدكتور عادل سمعته يقول: «هل رأيت جزيرة كريت؟» رددت على الفور: «أبداً.. لم أر أي جزيرة».

قال في دهشة: «كيف ذلك وقد مررنا عليها فعلاً!» توقفت الكلمات على لساني، أبعد هذا كله وبعد ضربة الشمس غمر على الجزيرة دون أن أراها، وسمعت كلمات الرجل تقول في شيء من المواساة!

« يبدو أنك جلست على الجانب الذي لا تبدو منه الجزيرة » .
 فقلت في إعياء : « إنه الجانب نفسه الذي تحدثنا عند سوره في
 المساء » .

ضحك وهو يقول : « خطأ بسيط .. فالجزيرة كانت على الجانب
 الآخر » !



قبل أن أنام، قال لى الدكتور عادل : « هناك حفل تعارف في
 المساء سيحضره طاقم الباخرة وكل الركاب .. أنا ذاهب الآن إلى
 العيادة . وسألقاك في الحفل » .

وغرقت في النوم .

وعندما استيقظت أسرعرت بارتداء ملابسى لحضور الحفل .. وقبل
 أن أغادر الحجرة .. جاء الدكتور عادل ليقول لى : « لماذا لم تحضر
 الحفل » ؟!

وتزاحمت الكلمات على لسانى . هل فاتتنى الحفلة هى الأخرى كما
 فاتتنى جزيرة كريت .. ماذا حدث ؟!

يا صديق البحر .. ماذا أعددت لى فى جعبتك من مفاجآت ؟!

كلهم زوريا!

أبطأت السفينة من سرعته، وكالعادة زادت سرعة البشر فوقها..
وساد المهرج، فها نحن نصل الى أول ميناء، إلى «بيريه» وبعدها
بنصف ساعة بالسيارة إلى «أثينا».. وكلمات كثيرة عن «أوريا» التي
وصلنا إليها، وعن الأماكن الساحرة التي سنشاهدها.. الإكروبول..
والبارثينون.. وبرويليا والجبال التي عرفت الأساطير اليونانية القديمة،
وعرفت أيضاً الفلاسفة.. وأنا واقف عند سور الشرفة أتسطلع إلى
صديق البحر!

الواقع يقول إننا اجتزناه إلى جانبه الآخر..
الحقيقة تقول إن الامتداد اللانهائي قد أصبحت له نهاية.
ولكن الخيال يمكن أن يشتعل من جديد.. إذا نظرت هذه المرة
ناحية الجنوب!

لا يسم المكان الذى تقف فيه، بالشمال أم بالجنوب، أى تطلع إلى البحر وإلى مداه الواسع.. يحفظ له الأفق. ويحفظ له أيضًا كل الملامح التى أقدمها فيه.. الكبرياء.. والقوة.. وأنفاس الكائن الحى.

أفقت على كلمات «جربجوار» وهو يشد على يدي مودعًا فرحلته هو وزوجته تنتهى هنا. كان يقول: أخيرًا أعود للوطن.

.. وبعد رحيله أحسست أن قدمي ترديدان أن تغطا الأرض، أن تسيرا فوقها. فكل خطواتنا ونحن بالسفينة كانت حركة فوق حركة. سباقًا فوق موج البحر، وأسرت انتظم في الطابور المغادر للسفينة. وكانت الأرض يونانية.

كأننى فى الإسكندرية، الكلمات اليونانية المتناثرة لا تنفى ذلك. فحتى تلك النبرات تعودنا أن نسمعها هناك أيام كانت بلادنا مزدهمة بالخواجات، شارع واحد يفصل بين الرصيف الذى رست عنده السفينة «سينتيا» و «بيريه» المدينة.. المقاهى الكثيرة، والمطاعم، والبنوك فى انتظار القادمين من البحر.

وقالوا إن سيارة فى انتظارنا لتأخذنا إلى «أثينا» فى زيارة للاكروبول وبعدها نحن أحرار نتجول كما نشاء، كنت أجلس بجوار النافذة أتطلع إلى الشاطئ الذى يقود إلى أثينا، ولكن الكلمات التى كنت أسمعها شدت انتباهى عن متابعة أى شيء. كانت كلماته

بالعربية ولا تمر دقيقة واحدة دون نكتة أو قفشة لا يقدر عليها
الا ابن بلد أصيل..

يتطلع إلى الجبال ويقول هناك يحتفلون بعيد «مار الياس».. وفي
المدينة كل من اسمه «الياس» يغلق محله اليوم أو لا يذهب إلى
العمل.. كان بحاراً منذ مئات السنين ثم مل التجوال بين الموانئ
واختار أن يستقر بين المزارعين.. ثم.. انظروا إلى هذه المباني
الجديدة.. نصيحتي لكم ألا تفعلوا مثل الرجل اليوناني.. إنه يضع
شبابه ليجمع «الدرخمة» فوق «الدرخمة» حتى يستطيع بناء بيت.. ثم
يموت.. ليستمتع به غيره!.. اليونان تغيرت. حركة التعمير سريعة
وعصرية. والآن ستدور السيارة لتصعد إلى «الأكربول» طبعاً أنتم
ليس بكم شوق كبير لرؤية الآثار القديمة.. عندكم منها بالآلاف..
معبد الكرنك مثلاً.. لكن ماذا سأقول.. تعالوا معنى والسلام لرؤية
الأكربول!!

كنت أتجول بين أعمدة الأكربول وحولها وذهني مشدود إلى
كلمات ذلك المرشد، وعندما تجمعنا في السيارة ثانية لنعود إلى
«بيريه» رحت أسأل من حولي عنه، وقال لي زميلي في القمرة «رقم
١٩٠» الدكتور عادل إن اسمه «جورج» وأجمع الصديقان «سيد» و
«لطفى» اللذان كانت أول معرفتي بهما عند شرفة السفينة أن
«جورج» شخصية فريدة يجب أن تصحبنا بقية النهار مهما كان من
انتهاء مهمته عند العودة إلى السفينة، وفعلاً أسرعنا إليه نحن الأربعة

لنتعرف به، ولندعوه إلى ما نؤينا عليه. ووجدناه يقبل دعوتنا في حماس كبير والكلمات المرحية لا تفارق لسانه: «ضرورة عايزين تشربوا شاي.. تعالوا نقعد في القهوة.. ياترى حد فيكم عايز يلعب طاولة؟!»

* * *

يقول الأديب اليوناني الكبير «نيقوس كازانتراكس» عن «زوريا».

«في خضم الحرب العالمية الثانية وأثناء الاحتلال النازي والمجاعات التي اجتاحت اليونان.. عادت إلى مخيلتي صورة صديق جورج زوريا، الذي كنت قد التقيت به عام ١٩١٧ وخضنا معاً تجربة بقاء بالفشل الذريع لاستغلال منجم للفحم المعدن بإحدى الجزر اليونانية.. ولقد بعثت ذكرى صديق هذا المروء، التلقائي، الساذج، الماكر، بعثت في قلبي العزاء، وعاونتني على التغلب على كثير من الصعاب»!

ويقول صديقنا الجديد جورج: «نحن هنا نتعلق بحكمتين.. الأولى «ديفر ييسى» يعني «مشي حالك» والثانية «ديم برازي» يعني «ولا يهيك»!

اليوناني ابن حظ، ليس معنى ذلك أنه ينفق بلا حساب. إنه حريص، ولكنه يعرف كيف يستمتع بحياته. والمرأة اليونانية مثله إنها تقدس الحياة الزوجية والبيت، ولكنها حريصة أيضاً على أن تأخذ

حظها من الدنيا حتى ولو مع رجل آخر غير زوجها.

أعرف أن اليونان ظهرت لكم من أول نظرة كمكان مألوف، كأنكم لستم في أوروبا. والحقيقة أن اليونان غربية وشرقية في الوقت نفسه، لن أقول لكم كما تقول الكتب إنها بلد الضوء الباهر الذي ليس فيه ضباب الشمال أو حرقة إفريقيا، وإنما الحقيقة أنها كانت بلدًا فقيرًا تعود أبنائه المهجرة منه لكسب العيش في كل أطراف الأرض، ولكنه الآن وجد نفسه في الصناعة.. استقرت الأمور بعد سنوات من القلق، نحن نصدر الآن الكثير من الصناعات القطنية والجلدية. هذا بخلاف السجائر والمواد الغذائية وخاصة الفاكهة والزيتون.. أنا أعرف ماذا وراء ضحكك هذه؟.. ضروري قد شاهدت الطابور الطويل لقطع الأسطول السادس الأمريكي قبل أن تدخل السفينة إلى الميناء. ولكن الحقيقة أننا نستفيد منهم أكثر مما يستفيدون هم منا.. نحن اليونانيين معزوف عنا أننا نكره الاستعمار.. حاربتنا الأتراك وانتصرنا عليهم وطردناهم من بلادنا.. في العام الماضي احتفلنا بمرور قرن ونصف على انتصارنا عليهم.. هذا الاحتفال مسجل فوق علب الكبريت.. انظر.. كل علبة عليها صورة من صور أبطال النضال ضد الأتراك.. وفي الحرب العالمية الثانية وقفنا شهيداً في وجه جنود موسوليني، ووجد الألمان صعوبة كبيرة قبل أن يستطيعوا احتلال اليونان.. والآن «ديفر يسي» - متى حالك - فالجنود الأمريكيون يصرفون آلاف الدولارات في

الإجازات التي يمضونها في «بيره» أو في «أثينا».. باستمرار نحن الذين نكسب.. تسألني عن حكاية القديس «مار الياس».. هل كنت نائما في السيارة ولم تسمع كلامه عنه.. الحكاية أن له الآن فوق كل جبل كنيسة.. وزمان منذ ألف وخمسمائة سنة كان رجلا عادياً يعمل في البحر.. وبعد تجوال طويل قرر أن يهجر البحر نهائياً.. حل مجدافه وسار بين الجبال والأودية.. كان الزراع الذين يقابلونه يسألونه ما هذا الذي معك. فيقول «مجداف».. وتكرر السؤال وتكررت الإجابة.. وفي النهاية قال لهم «هذه عصا لأهش بها العصافير بعيداً عن الزرع».. وعاش بعد ذلك بين الزراع يحرس لهم الزرع.. كان يتنقل بين الجبال والبركة تتنقل معه.. فتعلق به الناس.. وكانوا ينامون ويتركون له الجبال وما عليها من مزروعات ليحرسها.. وعندما مات اعتبروه مثل الأنبياء أو القديسين.. وأقاموا له كنيسة أعلى كل جبل.. وبالنسبة.. الجبال، الحياة بها تفوق كل وصف. أنا أذهب كل شتاء إلى القرية التي ولدت بها.. وهناك بعيداً عن دخان المصانع وسمومها.. وحيث الهواء النقي الذي يشفي - على رأي المصريين - كل مريض.. أعيش على الفطرة بالنقود التي أكون قد جمعتها من عملي كمرشد سياحي طوال شهور الصيف.. كل شيء موجود في قرى الجبال.. القرية عبارة عن ٤٥٠ شخصاً وعدد بيوتها لا يتجاوز المائة، وبكل قرية مدرسة، وعندما يكبر الدارسون بها يذهبون إلى قرية أكبر، في كل بيت لابد أن توجد به

تكعيبه العنب. وكل بيت لابد أن توجد به أيضًا شجرة اللوز وشجرة التفاح. هذا بخلاف بقرتين وعدد لا بأس به من الماعز.. ووسائل الترفيه الوحيدة هي تجميع أهل كل قرية في الأعياد وحفلاتهم جميعًا تكون في الظهيرة - حتى حفلات الزواج - وبعد الخروج من الكنيسة يرقص الجميع بما فيهم القسيس والعروس.. وتوالى الأنغام الموسيقية من الفرقة الخاصة بالقرية.. وكما هو الحال عندكم يتجمع في أيدي أفراد الفرقة «النقوطة».. وشرب الجميع «النبيد» في انتظار شئ الخرفان.. أشكرك.. منذ فترة كبيرة وأنا لم أدخن سيجارة مصرية.. هاجرت أسرق إلى مصر مع بداية الحرب العالمية الثانية.. واستقرت في حي «بولاق».. وهناك تعلمت في الكلية الفرنسية.. ثم لم أواظب على الدراسة.. تعلمت ميكانيكيًا بإحدى ورش بولاق. أحببت أولاد البلد هناك وكنت أعيش وسطهم كواحد منهم.. تركت مصر لشهور لأنضم للجيش اليوناني، ثم عدت ثانية لأتزوج من واحدة يونانية وطلقتها قبل أن أغادر مصر نهائيًا عائدًا إلى اليونان منذ حوالي عشرين سنة.. ومن يومها وأنا في شوق كبير للعودة إلى مصر.. ضروري، أن الشوارع مزدحمة الآن بالعربات التي تتبع المانجيو.. آه.. إنني اعتبرها أعظم فاكهة على وجه الأرض.. عندما أكل واحدة أحسن - ولا مؤاخذه - كأنني أستمتع بحب أجمل نساء الأرض !!

نعم.. كائن في الإسكندرية.. والإحساس يتزايد بذلك وأنا
 أتجول في شوارع «أثينا» ثم في شوارع «بيريه».. والمقاهى على
 النواصى وفي كل مكان.. والعربات التى تبيع البطيخ المشقوق إلى
 أجزاء صغيرة هنا وهناك. ومحال البقالة تفرش بضاعتها حتى منتصف
 الرصيف.. ولابد من وجود براميل «الزيتون» بكل الأحجام المفاوته،
 ولابد أيضاً من وجود السردين «والبلاميطه».. كما كانت تفعل محال
 البقالة التى كان يملكها اليونانيون عندنا في مصر.. أنت هنا لست
 في حاجة إلى الحديث بلغة أجنبية.. لابد أن يصادفك من يعرف
 العربية.. سواء كان يونانياً.. أو مصرياً هاجر إلى اليونان ليعمل
 هناك.. والمصريون كثيرون في شوارع بيريه.. وهناك المقاهى التى
 تحمل أسماءهم وتقدم للزبائن «الشيشة».. وأحياناً «الجوزة
 بالمعسل».. الصديق الجديد «جورج» يضحك ويقول «حصل
 خير.. المصريون أصبحوا الآن من هواة الترحال كما كنا نحن زمان».
 وكأبناء البلد.. يصير «جورج» على دعوتنا على الغداء في بيته..
 الدكتور عادل، وسيد - ولطفى - وأنا.. قال بحماس ينهى أى
 اعتذار: «أنا عندى شوية سمك كويسين وواحدة كابوريا وزيب
 «أوزو» زى ما انتم عايزين.. أما إذا كنتم عايزين بيرة فاشتروها
 معاكم قبل ما تطلعوا معايا.. تحت البيت واحدة صاحبة بقالة لسه
 راجعه من مصر».

بيت «جورج» لا يفترق عن أى بيت مصرى، وكل شيء فيه

يلمع بالنظافة. ولم تمر لحظات حتى جاءت زوجة جورج تسبقها طفلتها الصغيرة لتقدم لنا طعام الغداء.. السمك والكابوريا وسلطة اللبن بالثوم والقواقع المطهية بالدمنة.. كأننا في إحدى مدن مصر الساحلية.

بعد الغداء انسحبت زوجة جورج وانسحبت الطفلة.. وقال جورج على الفور في مزح: «إنها آخر زوجاتي.. طيبة وبنيت حلال وما بتسألنيش أنت رايح فين ولا جى منين».

سألت «جورج» في مشاكسة: عملك كمرشد سياحي يجعلك تقابل نساء من كل الجنسيات.. أيهن تعجبك أكثر؟.

ضحك وهو يقول: «سأتكلم على راحتي.. فزوجتي لا تعرف العربية.. أولاً.. هناك مجموعة يجب أن أحذفها من قائمة الإعجاب، وهذه المجموعة تضم نساء اليابان والهند.. وبقيّة كل دول وسط وشرق آسيا.. وعلى رأس قائمة الإعجاب تأتي المرأة الهولندية.. إنها أجمل نساء الأرض وأكثرهن استمتاعاً بالحب.. وبعدها الإيطالية.. ثم الإنجليزية»!

ونترك بيت «جورج» وننزل إلى الشارع..

وكما أن بصمات الأصابع لا يمكن أن تكرر بين شخص وآخر..

كذلك المدن.. بصماتها الشوارع والبيوت..

والنشرات الدعائية تقول الأكربول وتقول البارثينون ولكن عندما

نلتقي بالشارع. وعندما نلتقي بالإنسان الذى يسكن هذا الشارع..

نعرف ما يفوق كل ما تقوله الشرات الدعائية.
«ديفريسي» .. مشي حالك.
«ديم برازي» .. ولا يهك.
المثلان الشعبيان اللذان يعتز بهما اليونانيون.
تمامًا كما كان يقول «زوريا» وكما كان يسخر من الفشل.
ويضحك من المصائب.
فكلهم هنا .. في اليونان .. زوريا!

حوار من طرف واحد!

١

أنت تقول إنك عاشق للبحر، ولكن معذرة دعني أسألك.. ماذا تعرف عنه؟ البحر ليس مجموعة أوصاف وكلمات تقولها ثم ينتهي كل شيء، لا يكفي الفتاة التي تعشقها أن تظل تردد في أذنها أنك تحبها.. كذلك البحر.. ومرة ثانية معذرة فأنا لا أريد أن أفسد علاقتك معه، قد تكون عشت على شاطئه سنوات طويلة. قد تمتلك له من الأحاسيس ما يسعده لو أنه كائن حي مثلك، ولكن كل هذا لا يكفي.. لكي تكون عاشقاً حقيقياً للبحر، لابد أن تعطيه مثلما يعطيك، أن تضحي من أجله مثلما يضحي من أجلك.. ألا تفعل ذلك مع الإنسانية التي تحبها بكل جوارحك؟ أرجوك.. حاول أن تتذوق ظهر يدك. أى طعم على لسانك الآن؟ الملوحة.. أليس

كذلك ؟ لقد بدأ البحر فعلا بالعطاء ، فماذا تراك ستعطيه في المقابل ؟ ! .

أنا أعرف أن الإجابة صعبة ، ولكنى سأطوِّع بالإجابة نيابة عنك . فأنا عشت عمري كله في البحر ، عرفته وموجهه يمتد كأرض مستوية مهيبة . ولم أهرب منه حينما طوحت بموجه العواصف الهوجاء ، أو حينما عوت في أجوائه الريح الوحشية . دائماً كنت معه . في الليل أو في النهار لا أفارقه ، وهذا هو العطاء الوحيد الذي يقبله البحر . . . فلو كنت في جولة عابره ، أو في لحظة تأمل تحاول أن تنفض الزبد لتغوص إلى الأعماق . . فكل الذي سيحدث أن البحر سيرحب بك ، ولكنه لن يقبل أن تقول إنك عاشقه . لأنه في البداية لأبد أن يعشقك .

نعم . العطاء الوحيد الذي يقبله البحر أن تزامله حتى يتحول جلدك إلى صلابة الصدف . ومرة ثالثة معذرة ، يبدو أنني قسوت عليك . ويبدو أنني تدخلت بينك وبين البحر . ما علينا لأبد أن لك أباً أو جدّاً عجوزاً مثلي . ولابد أنك قد تعودت أن تسمع منه مثل هذه الكلمات . نحن في هذه السن يحلو لنا أن نسخر من كل من هم أصغر منا ، ودعني أهنس في أذنك أننا نضحك على أنفسنا . برغم السخرية فإن قلوبنا مفعمة بالحنس وبالحسرة على شبابنا الذي ضاع .

لا يهم أن تعرف اسمي . يكفي أن تقول عني « البحري »

الرجل المعجوز الذى يعمل فى البحر. زمان كنت أفرح إلى حد الرقص عند اقتراب السفينة من أى ميناء. فهذا معناه عطلة قصيرة، ومعناه حضن دافئ.. ورشقات من شفاة سخية. أما هذه الأيام فأتمنى أن تظل السفينة بين الأمواج إلى ما لا نهاية. لا أحس بالغربة إلا وأنا فوق الأرض، وأخاف من أن تكون نهايتى بعيداً عن البحر معذرة. لابد أن أتركك الآن، يجب أن أنزل إلى الماكينات فعملى ينتظرون هناك.

٢

أنا لست يونانية أو إيطالية، ركبت السفينة من «بيريه» وسأغادرها فى «مرسيليا» وبرغم ذلك فأنا لست فرنسية أيضاً. إذا كانت جنسيتى مهمة فيكفى أن أقول إنى مولودة فى «أوسلو» وأعتقد إلى حد الإيمان أننى ابنة العالم كله. لقد ضاق صدرى بالكلمات التى يحاول الكبار أن يملئوها بها رءوسنا فى البيت.. أو فى المدرسة.. أو حتى فى الجامعة.. إلى متى يظل الإنسان أضعف الحيوانات؟ القطعة تهجر صفارها فور أن يتمكن الواحد منهم من أن يجد طعامه. وهكذا بقية الحيوانات. فلماذا يفرض علينا الكبار الوصاية إلى ما يقرب من ربع قرن.. كلام فارغ.

أمى ولدتنى وأنا أشكرها من أجل ذلك أحياناً. أما أبى فقد ظللت الدمية الجميلة التى تتسبب إليه حتى علا صدرى فأصبحت

مشكلة كبيرة بالنسبة له. لماذا يحرص الإنسان بعد ذلك على أن يكون له أم وأب؟. لحظة الميلاد الحقيقية بالنسبة لى هى يوم أن غادرت البيت، الجدران والوطن. والعالم كله هو الوطن الجديد. لا أملك شيئاً إلا رغبتى فى أن أعيش، وشوقى إلى أن أتعرف على الحياة بنفسى. طبعاً هناك الكثير من المشاكل والصعاب التى تواجهنى وهى ليست المشاكل نفسها التى تواجه الشاب الذى يفعل مثلى. أول الصعاب أننى فتاة، وأننى كما يقولون جميلة. فى كل مكان تطاردنى عيون الرجل. تكبلنى الأنثى فى تكوينى الخارجى وأنا فى الحقيقة كيان متمرد. إذا استلقيت فى حديقة أو حتى تعريت فلاننى أريد أن أفعل ذلك ولست أريد أن أغرى الرجال. من حقى لو كنت جائعة أن أقبل دعوتك إلى الطعام. ولكن ليس من حقك أن تنال جسدى فى المقابل. أرجوك أن تفهم. أننى لست راهبة فى معبد. لو أحسست بالرغبة فى الاستمتاع بالحب مع أى رجل فساكون له بشرط أن تكون هذه رغبته أيضاً.

بالأمس وأنا نائمة فى الحديقة فى انتظار قدوم السفينة اقترب منى شاب أسمر ويده ممدودة بعلبة سجائر. اعتدلت وأخذت منه سيجارة شاكرة فقد كنت أحس بالرغبة فى أن أدخن كنت أعتقد ان الأمر سينتهى عند هذا الحد. ولكنه كان يريد إعطائى العلبة كلها، وكان يريد أيضاً - كما تفضحه عيناه - أن يسأخذنى كلى على بعضى ولا يكتفى بكلمة أشكرك مقابل سيجارته. هل من المعقول أن أكون

له بهذه البساطة ؟ هل من المعقول أن أمتحن نفسي إلى هذا الحد .
لماذا إذن حملت هذه الحقبة الصغيرة وراء ظهري ، ولماذا إذن قررت
أن أطوف العالم دون توقف ؟ !
تسليتي الوحيدة هي القراءة . سعادتي تتجدد كلما قرأت كتاباً .
جديداً . الكتاب الذي انتهى من قراءته تنتهي علاقتي به ففكرة أن
تكون للإنسان مكتبة فكرة عتيقة لا تتناسب مع هذا العصر .
الإنسان الذي يحرص أن تكون عنده مكتبة كأنما يحرص على أن يزرع
رجليه في الأرض ، لتظل المكتبة أمامه وبظل هو أمامها . جماد أمام
جماد . أنا أقرأ الكتاب وأستوعبه ثم أسعى بجدي لأن أستبدله بكتاب
آخر ، استعرضت كل الفلسفات التي ابتدعها الإنسان ابتداء من
« ديموقريطس » حتى « ماركوس » ولم أعجب بأى هذه الفلسفات .
الفلسفة الوحيدة التي يجب أن يؤمن بها الإنسان هي أن يكون
إنساناً . . يرفض الظلم لنفسه أو لغيره . تتلاشى أنانيته ليتألم - حتى
ولو كان في قمة السعادة - لعذاب إنسان آخر مثله يعيش على بعد
آلاف الأميال . أعتقد أنه آن الأوان ليعود الإنسان إلى الطبيعة التي
هجرها منذ العصر الحجري . حكاية الأضرار والتكنولوجيا كلام فارغ .
النهاية المتوقعة أن الإنسان سيضغط على زر يزيله تماماً من وجه الأرض .
بعد العشاء سأعود هنا لأشهد الجبلين اللذين ستعبر بينهما
السفينة في عمر « كورنيث » . لا بد ألا يفوتك هذا المشهد . والآن .
بعد إذنك . أنا ذاهبة إلى صالة الطعام !

لقد حرصت على أن أدعوك إلى مكتبي في هذه اللحظات بالذات، وطبعاً أنت تعرف أننى الضابط الأول في السفينة. ولا بد أنهم قالوا لك إن اسمى «بانتاكوس وسكيريوش» كما قالوا لى إنك تريد معرفة بعض المعلومات عن «سيتيا». دعك من المعلومات الآن حتى تعيش تلك اللحظات الخيالية. ونحن نمر في «كورنيث». الذى يتولى قيادة السفينة الآن ليس أنا أو الكابتن «بانيوى جيانولاتوس».. وإنما مرشد خاص كما هو الأمر عندكم فى قناة السويس.. انظر. إن الشريط ضيق إلى الغاية بين الجبلين. لو انحرفت السفينة عدة سنتيمترات لحدثت كارثة لكن لا تخف. هؤلاء الرجال يعرفون عملهم جيداً.

هذه القناة ليست كلها مع صنع الطبيعة. الجزء الأكبر عمل خيالى من أعمال الإنسان. كان ذلك سنة ١٨٨٣ أى ما يقرب من مائة سنة. القناة تتخللها أماكن ينخفض فيها ارتفاع الجبال ولذلك - كما ترى - يحرص اليونانيون على أن يقيموا فيها الكازينوهات والملاهى الليلية. تسألنى عن عمل الضابط الأول وأقول لك - وربنا يجعل كلامى خفيفاً على الكابتن - إن الضابط الأول مسئول عن كل شىء، وعملية إبحار السفينة فى البحر عملية معقدة تعتمد على

الحسابات أولاً وأخيراً. والحسابات تساعدنا بالطبع بالأجهزة الحديثة، وخاصة الرادار والإلكترونيات.

قد تظن أن السفينة تسير في براح تذهب يميناً أو شمالاً كما تريد، والواقع غير ذلك. خطط سير السفينة مرسوم ومخصص لها حتى لا تتعدى على خطط سير أى سفينة أخرى. نعم أنا متزوج وبسبب انشغالي في عملي طوال الصيف فإن زوجتي تأتي من بيريه لتعيش معي في السفينة حتى نعود إلى «بيريه» ثانية، بالطبع أنا لا أعمل طوال السنة، آخذ إجازة طويلة في الشتاء، وهذه الإجازة أقضيها كمعظم أبناء بلادى في الجبال.

هذه السفينة عمرها الآن أربعون سنة.. كان اسمها الأول «بريتانيا» وكانت تملكها شركة إنجليزية تخصصها للرحلات بين الجزيرة البريطانية وموانئ البحر الأبيض. ولذلك فأنت تشعر أن حجرات السفينة - الكبائن - لا تصلح للإقامة الطويلة. فمعدرة إذا كنت تشعر أحياناً بالاختناق في حجرتك. بالطبع تصادفني كضابط أول متاعب كثيرة من الركاب آخر هذه المتاعب كانت مع أحد الأمراء بعد أن احتسى كميات هائلة من الويسكى، ثم هاج كالشور بين الركاب. وخاصة الجنس اللطيف، وفي أول الأمر أخرجت مسدسي وهددته بإطلاق النار إن لم يلتزم بمحدود اللياقة ويهدأ. ولكنه ظل على هياجه، وعلى الفور أصدرت أمرى بوضع القيد الحديدى في يديه وحجسته في كابينة تحت حراسة مشددة حتى الصباح. وحين أفاق كان

أول شيء فعله أنه جاء إلى مكتبي واعتذر عن كل ما فعله ساعة سكره الشديد.

بصفتك صحفيًا سأقول لك خبرًا لا يعرفه أحد بعد في السفينة. غداً سنجرى تجربة غرق وهمية. سنطلق الصفارات التي نطلقها عادة عندما تواجه السفينة العواصف وتوشك على الغرق. في كابينة كل راكب توجد اللوحة المكتوبة فيها المعلومات التي يجب عليه أن ينفذها في حالة الخطر. أول كل شيء رقم قارب النجاة الذي يجب عليه أن يتجه إليه أعلى السفينة ويأخذ مكانه فيه بعد أن يرتدى جاكث الحياة. ستكون تجربة مثيرة، فأنت ترى الجميع وقد اختفت أجسادهم تحت هذه «الجواكث» ووجوههم يرتسم عليها الخوف برغم أنها تجربة وهمية. في مرات نادرة حدثت عواصف حقيقية ونحن نجرى مثل هذه التجارب، وبالطبع الخطر يشغلنا عن أن نضحك على هذه المقارنة الغريبة. وغير المتوقعة. هل أسألك إن كنت تشكو من أى شيء غير ضيق الحجرة المخصصة للإقامة والنوم. عظيم بعد إذنك فالسفينة أوشكت على عبور «كورنيث» وقد انتهى الآن عمل المرشد وبدأ عمل أنا. ما رأيك هل فكرت يومًا في أن تعمل في البحر؟ أنا شخصيًا كنت أتمنى أن أكون كاتبًا مثلك أو صحفيًا ولكن يبدو أن الوقت قد فات.. أليس كذلك؟

هذه ليست أول مرة أركب فيها سفينة، سافرت كثيرًا بالبحر إلى بيروت، فأهلى مازالوا يعيشون هناك برغم أنى أصبحت مصرية بحكم الزواج والإقامة. ضوء القمر وانعكاسه المدهش على سطح الماء جاء بي هنا إلى أعلى مكان في السفينة. المرأة المتزوجة في حاجة لأكثر قدر من الرومانسية وإلا أصبحت حياتها جحيمًا لا يطاق. لو جاء زوجي الآن وجلس معي في ضوء القمر فلن تمر دقائق حتى يتطور الحديث بيننا إلى شجار وإلى ما يجب أن نفعله أو ما لا يجب أن نفعله. تزوجت صغيرة ولا أستطيع أن أحدد ما إذا كنت قد وافقت أيامها أم لم أوافق.

أى فتاة تسعد للطبول المصاحبة للزواج والسابقة له وبعد ذلك يشدها الواقع إلى ضرورة إعادة التفكير من جديد. الزوجة الأجنبية - أو المرأة الأجنبية عمومًا - تفعل ما تقتنع به دون تردد. تأخذ القرار هكذا وتنفذه دون أى خوف. ولكن المرأة عندنا تتسوق لعشرات الأشياء وتكتفى بأن تنفذ بعضها في خيالها. ابنتى مازالت صغيرة ولكننى لن أسمح بأن أرسوم لها أو يرسم لها أبوها بغير ما تريده هى تمامًا.

كل ما تفعله المرأة عندنا - أو حتى الفتاة - في الخفاء تفعله الفتاة هنا أمام الجميع. تقبل حبيبها في اللحظة التى تريد أن تقبله

فيها حتى ولو كان أبوها يجلس على يمينها. ألم أقل لك إن المرأة المتزوجة في حاجة إلى أكبر قدر من الرومانسية.. بالطبع أنا شاكرة لزوجي اصطحابه لي في هذه الرحلة، ولكنني أحس بضيق كبير عندما أراه يتعامل معي في البيت. قد تدهش لأمنيته الآن أو تزعج، ولكنني أتمنى أن تقوم عاصفة. وأن تصفر الريح، وأن يتلاعب الموج بالسفينة.. وأن تلمطم المياه جوانبها.. وتأكد أنني ساعتها لن أطلق أى صيحة فزع. أكره الرتابة والتكرار وأن أكون في سفينة تتجول بطول البحر وعرضه ثم لا يحدث شيء خطير يكون مشار الخوف والتعليقات والحكايات التي لا تنتهى. هل أخبرك بشيء. إن آميناتي كثيراً ما تتحقق. ومن يعرف. فرما تجيء العاصفة الليلية.. أو ربما في الفجر!!



طال بي الوقت دون أن أتكلم.
نهار بأكمله، وأمسيته.. وأنا أسمع وأسمع..
في الخامسة صباحاً تمر السفينة على جزيرة «كابري».. ثم بعد ساعتين تصل إلى «نابولي».. ومسار السفينة الآن كأنه في دروب الأحلام.
ولكنها الحقيقة..
فأى الأمنيات ستتحقق في الفجر.. ثم في الصبح؟!

الجسد.. لغة عالمية

أنا في دائرة الإحساس، لا يعنيني البحث عن الكلمات المناسبة، منذ أن تعلم الإنسان الكلام وهو يتكلم ويتكلم، ومنذ تعلم الكتابة وهو ضائع مع الحروف الأبجدية، ولكنني لن أفعل ذلك. إن كان من الضروري أن أنقل إليك، وأنا داخل هذه الدائرة كل ما أحسه وما أشعر به، فأرجوك ألا تطالبني بمنطق، ولا تتعب نفسك بالجرى وراء المقدمات والنتائج، فالحكاية ببساطة أنني عشت عمري أسمع كلمات مثل «كابري»، ومثل «كان» ومثل «الريفيرا» وكنت أعتبرها صفات مكتملة لصفات صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حتى أنني تضاربت بالأيدي مع صديق لأنه قال إن الملك يأكل «أم الخلول» مثلنا. يفتحها بأظافره ليظفر بقطعة اللحم الضئيلة المختفية بين الصدفتين

الصغيرتين، كانت وجهة نظري أيامها أنه ضروري من وجود من يفتح «أم الخلول» للملك ويضعها في فمه، ثم بعد مرور السنوات عرفت أنه، كان يجب أن أتساجر مع صديق لأن الملك لا يجب «أم الخلول» بل لا يجب أى طعام تسبقه كلمة «أم»!

ثم مرة واحدة وجدت نفسى فى كابرى!

ولكى تم المفاجأة، ولكى تكتمل الصورة الملكية، رأيت فتاتين كانتا منذ لحظات بأكمل عقل قبل الهبوط فى المرفأ الصغير، رأيتهما ترميان ما عليهما من ملابس قليلة، لينضوى تحت الشمس جسدان ليس فيها أجزاء ناقصة أو حتى أجزاء زائدة، فلاله رقيقة فوق الصدر، ويبدو أنها ليست أى غلالة والسلام، ذلك أن هناك لغة مشتركة بينها وبين الغلالة الأخرى التى تعلو الفخذين، وأنتم تعرفون عنى أننى لا أفهم فى النحت، ولكنى فى تلك اللحظة كنت على استعداد لأن أعالج قطعة رخام بحجم لوحى نلج ملتصقين لأحبلهما إلى كيان أنثوى أملس الرقبة، نحيل الكتفين، ناهد الصدر، ضامر الخصر، مستدير الفخذين، وكنتم ستشهدان تمثال بالروعة، ولكن أين يذهب التمثال أمام ما أراه الآن، بل ما ظللت أراه منذ أن رست السفينة فى «نابولى»؟. الرؤية تمزج بإيقاع موسيقى فى كل شيء، فى اللغة، وفى ذلك العناق النادر بين الجبال والخضرة وزرقة البحر، وفى الخطوات التى لا تكاد تلامس الأرض، ولكنها خطوات الحياة كلها.. الرغبة فى البقاء.. الشوق لتحقيق الذات، أو لتلاشيها،

أنت في كل مرة الرجل، وما هي ذى الطبيعة تفتح لك ذراعيها بكل سمات الأنوثة، لو أشعلت سيجارة الآن وسحبت أنفاسها في استمتاع، فإن ما تحسه هو ذات الإحساس الذي يسبق متعة الحب، أو الذي يأتي بعدها.. فإذا أقول لك وفي تنبث منه سحابات الدخان؟!

مات فاروق الأول، فلاستمع أنا..
ولاغرق في أحضان كابري!

كانها مستلقية في فراشها، وكأنها تأكدت من أنها أغلقت الباب من الداخل، كانت هي مستلقية أعلى الدرجات القليلة المؤدية إلى بلاج كابري. وإلى جوارها فتاة أخرى بالبيكني أيضًا ولكنها جالسة في وضع الذي يريد أن يكتب، وكانت فعلا تكتب خطابًا ولم يمهلني رفاق الرحلة لأقف وأتأملها لموعد الغداء قد اقترب، ولا بد من ركوب «التليفريك» لصعود الجبل وتناول الطعام في أحد «الكازينوهات» فوق، وقبل أن أخطو بعيدًا عنها، سمعت كلمات التي تكتب الخطاب وبلغت إنجليزية مفهومة:

- هل أنت صاعد إلى فوق؟

وأشارت بيدها إلى أعلى الجبل المكسو بالخضرة وبالورود البنفسجية والحمراء، فتوقفت خطواتي على الفور لأجيبها:

- هم يريدون ذلك.. و..
قاطعتنى قائلة :
- من أين ؟
قلت :
- من مصر..
تعالى ضحكاتها كنغمة هارب فرعونى، ثم قالت فى سعادة
ظاهرة :
- لقد كسبت الرهان.. صديقتى كانت تقول إنك من
المكسيك..
ورأيت أن أحيى صديقتها المستقلة كأنها فى حجرة أغلقت بابها
من الداخل، وكان ردها ابتسامة وهزة من رأسها، فقلت لها :
- آسف لخسارتك الرهان بسببنا..
وكان ردها ابتسامة، الابتسامة نفسها وهزة أخرى من رأسها.
وتعالى من جديد الضحكة الموسيقية لتقول صاحبها :
- هى سويدية لا تعرف الإنجليزية.. وعلى العموم أنا أرجوك فى
خدمة.. هل من الممكن أن تأخذ هذا الخطاب معك لتسقطه فى
صندوق البريد.. لقد ألصقت به الطابع و..
تزاحمت على لسان الكلمات المقاطعة لها، والمبدية الاستعداد
لتنفيذ هذه الخدمة البسيطة، وعندما ابتعدت خطوات عنها قفز إلى
ذهنى تساؤل من تلك التساؤلات الكثيرة التى لا ترقى إلى درجة

الأهمية الكبيرة، ولكنها تتكرر كلما كان الإنسان في حالة تجوال أو سياحة، تساؤل يبدو ساعتها عظيم الأهمية وقد حشدت الطبيعة في خلفيته كل ما تمتلك من سحر، وجمال، وروعة..

لماذا تقف اللغة عائقاً بين الإنسان والإنسان، بل لماذا تقف أحياناً بين الرجل وفتاة مثل تلك الفتاة، كأنها خلقت لتوجد في هذا المكان بكل ما فيه من فتنة؟.. لماذا؟

الإشارات للمطالب الهينة، البسيطة..
ولكن الجسد.. إنه وحده لغة عالمية!!

بعد الصعود «بالتليفريك» والهبوط، قالوا إن أمامنا ساعة قبل أن نأخذ القوارب لنذهب إلى «المغارة الزرقاء» بعد لفة كاملة حول جزيرة كابري، وسأقتني خطواق إلى كشك لبيع الصحف والمجلات، وعندما رأيت الرجل الذي يبيع الصحف أحسست كأنني أستيقظ من حلم وردى إلى واقع تفرش كل أرجائه شعاعات الشمس اللافحة، إيطالي عجوز يرتدى ملابس تقاربه في السن، ولا ترسم على ملامحه واحدة من إبداعات الطبيعة التي تحيط به، كان يتكلم الإنجليزية بصعوبة، ولكنه تواق للحديث مع كل من يشتري منه، وكان يكتفى أن يسمعي وأنا أسأل عن سبب الارتفاع الجنون في أسعار كل شيء هنا، ثم وأنا أقول له إن الإيطاليين بارعون في استغلال الجيم والميم

والألف واللام في « جمال » هذه الجزيرة الأسطورية .. كان يكفي ذلك لينطلق في كلمات متقطعة ولكنها مليئة بالحماس .. ومصحوبة بحركات الأيدي التي تكاد تتكلم نيابة عن لسانه، بل عن جسده كله :

« أنا إيطالي .. فهل تراقى قد استفدت من تلك البراعة .. أنا أبيع الجرائد والمجلات .. فهل أستطيع أن أكذب عليك وأرفع سعرها .. إن الرقم أمامك مكتوب بالحروف اللاتينية .. عندما تتكلم عن البراعة أو عن الاستغلال .. فأرجوك أن تفهم أنها ليست مسألة شائعة يستفيد منها الجميع .. وإلا فهي ليست براءة على الإطلاق .. البراعة أن يستفيد من أموال القادمين هنا أقل عدد من الناس .. حتى تكون الفائدة كبيرة .. ودعني أهتمس في أذنك .. هذه الجزيرة ليس اسمها « كابري » .. هذا الاسم مقصور على أجزاء من الجزيرة وخاصة تلك التي تعلو الجبل .. ما هو أمامك ليس « كابري » إنه « مارينا » .. لقد كانت المهنة المربحة لنا هنا صيد السمك، وما زالت هناك الأسر الكثيرة التي تعيش على صيد السمك .. ولكن الصورة تغيرت تمامًا عندما قرروا أن تكون الجزيرة كالفرخة التي تبيض ذهبًا .. سياحة ؟ .. ولكن ماذا يهمني أنا وماذا يهم امرأتى وأولادى .. نحن نريد أن نعيش في أمان وفي هدوء .. ولكن كما ترى لقد تحولنا وتحولت جزيرتنا معنا إلى فرجة للعالم كله .. لقد أصبح على أن أقسم إن إيطالي في كل مرة أريد أن أشتري فيها شيئاً حتى لا يبيعوا لي بالسعار نفسها التي يبيعونها للوافدين على الجزيرة ..

طبعاً أنت تقول إن مالك الشيء لا يحس بما فيه من مزايا ومن جمال.. ولكن.. من قال لك إن أملك أى شيء.. إنها يا صديق القصة القديمة.. الفقير.. والغنى.. ولا تصدق الحكاية الكاذبة عن الذى كان معدماً ثم أصبح يمتلك الملايين. وإلا فأخبرنى كم يبلغ عدد الذين تحولوا من معدمين إلى أصحاب ملايين.. واحداً في المليون.. اثنين في شعب بأكمله.. عشرة في العالم كله؟.. البراعة والاستغلال صفات متوارثة يحافظ عليها أصحابها بالنصب وأحياناً بالقتل.. ولكن من يهم الآن بالقاتل أو المقتول؟!

كلمات الرجل العجوز شدتني من حلم «كابرى» الوردى.. جسده كان ينتفض بالغضب، وكأنما كان به شوق كبير لأن يزيح عن صدره كل هذه الكلمات.. وكان جسده، وغضبه - أيضاً - لغة عالمية!



في المساء التأم شملنا كالعادة فوق ظهر وسين ردهات السفينة، وكان الدكتور عادل طبيب الباخرة يقول: «الآن عدنا إلى بيتنا».. وهى الجملة نفسها التى يقوها كلما عدنا من تجوال طويل فى أى من الموانى، ثم نصعد درجات الباخرة ليتلقفنا البحر من جديد، كان الدكتور عادل قد بدأ يواجه مشاكل كثيرة مع بقية الركاب، فهو أساساً جراح، وقد اختاروه طبيباً للباخرة بالمصادفة، تغيب الطبيب

الأصلى فعرضوا عليه المهمة على أن تكون هذه الرحلة فقط، ووافق،
ويبدو أن علاقته بالأمراض الباطنية تقف عند وصف حبوب مقاومة
دوار البحر، وعندما تجمع عند باب عيادته، التي لا تتعدى مساحتها
نصف متر في نصف متر، ذلك الطابور الطويل من المرضى بالروماتيزم
وبالقلب، وحتى بالسكر، يبدو أن الدكتور عادل كان يصف لهم
جميعاً حبوب دوار البحر نفسها، وبدأ التذمر الذى يوشك أن يؤدي
إلى ثورة على السفينة.. وسألته ضاحكاً «إيه الحكاية؟»، ورد على
جيبه تلمع حبات العرق «أعمل إيه.. مافيش غير الحبوب دى
وشوية حبوب للصداغ.. والضابط الأول قال لى اتصرف فى حدود
الموجود!» غير أن هذه لم تكن مشكلته الوحيدة.. فبعد زيارة
«كابرى» وبعد مشاهدة الاستعراض المثير للحسناوات من كل البلاد،
تذكر الدكتور عادل أنه أعزب، وأنه قد مضى عليه عدة سنوات منذ
تخرجه فى كلية الطب وهو لم يتزوج بعد.. وكان قراره المفاجئ أن
يتزوج حالا، حاولت أن أناقشه، وأن أقنعه بأنه يمكن الانتظار حتى
الوصول إلى الإسكندرية، وبحركة خاطفة من يده أشار إلى فتاة
مصرية جميلة ولكنها جادة الملامح، ثم قال لى:

«هى دى اللى تنفعنى زوجة فى أسوان».. وقلت له: «عظيم
جداً.. ولكن أليس من الأفضل أن تحاول التعرف عليها أولاً
وبعدها».. وقاطعنى على الفور: «أخاف لو تكلمت معها أن أعير
رأى».. ورددت عليه فى دهشة: «وهل تريد الزواج منها دون

علمها».. قال فى بساطة : « يكون أحسن .. ما أنا ضرورى حا كلم أبوها وأهلها».

أحسست أنه واقع فى ورطة كبيرة وقد وقفت قبالة العيادة، سيدة متقدمة فى السن وصوتها يرتفع على صوت الموج : « انت دكتور انت .. أحسن لك تعالج الحمير».. كان يتجاهلها ويتجاهل صوتها العالى، ولكنى رأيت سمرة وجهه وقد احتقنت بالحمرة عندما مرت فى اللحظة نفسها تلك الفتاة التى قرر بينه وبين نفسه أن يتزوجها، وأسرع دون أى كلمة بإغلاق باب العيادة ثم هرول فى خطوات خاطفة قاصداً السلم المؤدى إلى أعلى السفينة، كان ظاهراً من طريقته فى الصعود أنه ينوى القيام بعمل خطير، الباخرة الآن قد ابتعدت عن الميناء الإيطالى كثيراً، والموج لسوء حظه فى تلك الليلة كان عالياً ومزججاً.. فماذا تراه فاعلاً بنفسه؟

أسرعت وراءه وصوت السيدة الغاضبة مازال يطارده باللعنات، ولكنى دهشت عندما لم أجده فوق، طفت بين قوارب الإنقاذ المثبتة عند حافة السفينة، ونظرت جيداً فى قاع حوض السباحة الصغير، ثم نظرت إلى مياه البحر من كل الجوانب، ولكنى لم أعثر له على أثر، كنت حتى هذه اللحظات أعتقد أنها حكاية طريفة يمكن أن تنتهى على خير، ولكن اختفاه هذا السريع بدأ يشع بموجات القلق والخطر، وبغير وعى رحت أصعد وأنزل كل الدرجات السداحلية بالسفينة، ثم لم أجد أمامى إلا أن أذهب إلى حجرتنا المشتركة،

وعندما فتحت الباب وصدرى يلهث، رأيته ممدداً في سريره الأرضي وكأن شيئاً لم يكن، وقال على الفور: « امرأة مجنونة.. كيف أتى إلى مثل هذه الرحلة وعندها ألف مرض ومرض؟! » وقلت له وأنا أحاول أن أخفف عنه: « إذن كان عليها أن تصحب طبيبها الخصوصى ».. وقبل أن أرد عليه قال وهو يهرب بعينه إلى الطاقة المظلة على البحر: « ماذا ستقول بنت الناس الآن؟.. كيف كانت انفعالاتها عندما رأت وسمعت ما حدث؟! » ووجدتني أنطلق ضاحكاً ثم أقول له: « وما شأنها بك؟ ».. فعاد يقول: « ماذا نقول.. ألن تصبح زوجتى.. هل سترضى أن تتزوج دكتور حمير؟! ».

* * *

« نحن في بيتنا الآن »..

تحول جميع الركاب إلى شلل، ولم يعد الأطفال يحسون بالرهبة من أى شيء، تتوالى ألعابهم وكأنهم في حديقة متعددة الطوابق، وحتى عندما بدأت السفينة مع ارتفاع الموج تهتز وتمايل بعنف. كانت المسألة تبدو طبيعية بالنسبة للجميع. وعندما يشعر أحدهم بالملل من الجلوس في الصالون ينسحب ولسان حاله يقول « أنا مروج بقى ».. ثم يخفى في حجرته، وكنت أظن أن تراقص السفينة سيحول بين عشاق النوم فوق ظهرها وبين البقاء هناك في ظلمة الليل، ولكن عندما صعدت إلى هناك رأيت غير ما كنت أتوقعه.. أكثر من عاشقين في قبلات وعناق طويل صامت.

القبلات متناثرة في كل الأركان، دون أى التفات لتمايل السفينة
أو لصوت الموج المزيجر..
دون أى التفات للخطوات المقترية أو المبتعدة.
وكنيت أقول لنفسي وأنا أهبط الدرجات إلى بطن السفينة :
حقيق.. الجسد.. لغة عالمية!!

كونشرتو القمم الزرقاء!

١

في تلك اللحظات، والليل يلف كل شيء بغلالة من الهواء النشط، لاح نذير الخطر، الأمواج التي كانت كريمة مع السفينة إلى أقصى الحدود تتمرد الآن وتعلو في قم متلاطمة لا تهدأ، وتتابع في ذهني على الفور ذلك الشريط من الكلمات التي قرأتها عن البحر عندما يثور، وتوالت الصور التي شاهدها في الأفلام عن العواصف، وعن الأمواج التي تتقلب إلى جبال وأودية وعن الغيوم والسحابات السوداء، وبدأت أستشعر الخوف! الكرسي السدي أجلس عليه، والمنضدة التي أمامي، الاثنان يتمايلان. وفي ثوان خاطفة أرى امتداد البحر وموجه المتراقص، ثم تعلو السفينة فأرى من المكان نفسه السماء وقد التهمت فيها النجوم، وكأن امتداد البحر قد تلاشى مرة واحدة!

الحركة - حركة الركاب - تكاد تختفى من ممرات وصالون السفينة، ويبدو أن الكثير منهم قد فضل أن يعتكف في الكبائن، ورأيت أنه من الحكمة أن أفعل أنا ذلك أيضاً، ولكن في اللحظة نفسها رأيت أمامي «بانتاكوس» الضابط الأول بالسفينة، كانت تنبث من فم صفارات بلحن لا أعرفه، وملاحه تبدى سعادة اعتقدت لحظتها أنها لا تتناسب مع حالة السفينة وسط ذلك الجو العاصف، وحاولت أن أبتسم وأنا أراه ينظر ناحيتي، ورد على ابتسامتي بأن جاء وجلس أمامي على الكرسي المقابل، ثم قال بعد أن حياني تحية المساء :

- الجميع قد ناموا.. فلماذا أنت ساهر.. أهو الأرق؟! قلت لنفسى قبل أن أرد عليه، هذه هي طريقة المضيئة الجوية عندما تكون الطائرة في خطر، فهل يتبع الضابط الأول بالسفينة الطريقة نفسها؟!.. ماذا تراه يقصد بسؤاله؟.. لا أعرف.. وقررت أن أدخل في الموضوع مباشرة :

- السفينة ليست في حالة عادية.. أليس كذلك؟ المهدف رأسه إلى الوراء في ضحكة عالية ثم عاد رأسه في مواجهتي ليقول في استنكار:

- ليست في حالة عادية؟.. من قال ذلك؟! قلت وأنا أمسك المنضدة المتأيلة بكلتا يدي:

- هذا التمايل.. وذلك الهواء النشط في الخارج.. أقصد العاصفة ..

قاطعتني وملاحه توحى بأنه يود أن يطلق ضحكة ثانية :
- وهل تسمى ذلك عاصفة؟ .. إنه شيء عادى نتوقعه في هذه المنطقة.. أما عن تمايل السفينة فكل ما في الأمر أني أصدرت أوامري بزيادة السرعة!

أدركت قبل أن أرد عليه - ربما لأول مرة - أن الكرسي الذى أجلس فوقه مثبت فى الأرضية، وكذلك المنضدة. فعدلت عن زحزحة الكرسي إلى الوراء وقلت له :

- لا أعتقد أن زيادة سرعة السفينة تسبب كل هذا التمايل ثم إن شكل الموج فى الخارج ليس كما تعودنا فى الأيام الماضية لابد أن هناك سبباً آخر!

مد يده لولاعته ليشتعل لى السيجارة التى كانت مدلاة بين شفتى دون إشعالها، وأشعل سيجارته، ثم قال فى هدوء حسدته عليه :
- هل تعتقد أنه لو كان هناك أى سبب آخر.. أقصد لو كان هناك أى خطر.. كنت سترانى هنا.. وكنت سأجلس معك كما أنا جالس الآن؟! .. بالطبع لا.. ولعلمك فإن الحالة التى عليها الموج الآن هى حالته الطبيعية فعلا.. كونك رأيت الموج منبسطة طوال الأيام الماضية فهذه ليست حالته العادية. وهذا من حسن حظ الذين جاؤا معنا فى هذه الرحلة.. وعلى العموم لا تنزعج.. فقرب الفجر

ستعود السفينة إلى سرعتها العادية.. وستقترب أكثر من الشاطئ الإيطالي. وبالذات شاطئ «بورتوفينو». وساعتها ستسنى كل ما فكرت فيه الآن!

أحسست بالخجل، وحاولت أن أقول شيئاً غير به مجرى الحديث، ولكن أفكاري لم تسعفى، فأثرت الصمت، وسمعته يقول ثانية:

- هل تعرف ماذا أحس عندما يعلو الموج كما هو حادث الآن.. أشعر كأنى أستمع إلى كونشرتو.. آلات الفرقة الموسيقية كلها تهدأ لينبعث صوت واحد هو صوت الكمان.. أو البيانو.. والآلات العازفة هنا هى حركة السفينة وذلك الهواء النشط، وحتى تلك النجوم المتناثرة فى السماء، تهدأ، بل تتلاشى، لينبعث صوت واحد يدخل فى حوار معها.. ذلك الصوت هو صوت الموج.. لا أقصد صوته بالضبط. وإنما أقصد صورته وقد تحول إلى قم زرقاء امداها لا نهائى.. وأمام هذه الصورة، وبانبعاث ذلك الصوت.. تكتمل سعادى وأشعر حقيقة أننى رجل بحر!

جاء أحد العاملين بالسفينة ومال على أذنه يهمس ببعض الكلمات، ورأيت بهب واقفاً ليستأذن فى الانصراف، وعندما ابتعدت خطواته، تعلقت نظراتى بالامتداد اللانهائى الذى كان يتكلم عنه.. وكان يظهر ويختفى من جديد مع تمايل السفينة وتأرجحها. هل أستطيع الاستمتاع بذلك «الكونشرتو» مثله؟

في الفجر - كما قال - ستعود السفينة إلى سرعتها العادية..
واعتقد أنه من الأحسن أن أذهب لأنام.. حتى يجيء الفجر!

٢

الميادين في « نابولي » كثيرة، والحدائق أكثر، والمنازل الرخامية
والذهبية منصوبة في كل مكان.. وكنا يوم أحد. وكانت أجراس
الكنائس تدق في وقت واحد وكأنها سيمفونية تدعو إلى الله.
وخطوات الناس متأنية ليست مدفوعة بمواعيد العمل. وأغلب المحال
مغلقة. وعندما أترك الميدان تدفعني قدماى إلى الشوارع الجانبية: ومن
الشوارع إلى الحواري وأشعر وأنا أسير في حيزها الضيق إلى أبعد
الحدود كأن الساكنين في هذا الجانب يستطيعون أن يمدوا أيديهم
ليشدوا على أيدي الساكنين في الجانب الآخر.. وفعلا.. عندما
رفعت نظرائى إلى أعلى رأيت الحبال المشدودة بين شرفات الجانبين
وعليها الملابس المنشورة حتى تجف!

وعند ناصية أرى سيارة سوداء كبيرة مقدمها وجوانبها مغطاة
بلعب الأطفال، وغير بعيد عنها عربة صغيرة فوقها براونز لصور
مرسومة بالزيت وكلها تقليد للوحات أشهر الرسامين العالميين.. بعد
أن اشتريت لعبة من هنا، ولوحة من هناك، سألت صاحب
السيارة:

- هل هذه سيارتك؟

ورد باعجليزية متعثرة :

- نعم.. ماذا فى ذلك.. إننى عندما أفرغ من البيع.. أنطلق بسيارتي إلى أى مكان أريد.. أما تلك العربى الصغيرة فنتركها هنا.. طريقة مبتكرة أليس كذلك.. إنها فكرة زوجتى التى باعت لك هذه اللوحة الصغيرة الآن!

وأعرف أن اسمه «ماركو» واندھش عندما يفخر بأنه «فاشستى»، ويدافع عن ذلك بقوله بالطريقة نفسها :

- وماذا فى ذلك.. أعضاء الحزب الفاشستى الجديد كثيرون هنا فى إيطاليا.. أكثر من مليونين.. لا تصدق ما يشاع عنا فى أننا دعاة حرب.. فى الحقيقة نحن نقدر القوة.. ودعوتنا من أجل أن تسترد إيطاليا مكانتها فى أوربا من جديد.. نحن لا نرضى بأن نكون ذيلًا لأحد.. لا للشرق ولا للغرب.. إيطاليا.. لإيطاليا فقط!

وأقول له وقد لاحظت احتقان عينيه بالحمرة :

- هل اشتركت فى الحرب العالمية الأخيرة؟

ويزداد انفعاله ويقول ويدها تتخبطان فى الهواء :

- أفهم ماذا تقصد بسؤالك.. لقد اشتركت فى الحرب فعلاً..

وأسرت.. لقد انهزمنا لأننا كنا أغبياء بتحالفنا مع هتلر.. الإيطالى يختلف كثيرًا عن الألمانى. الإيطالى فنان فى كل شىء.. والألمانى مثل بندول الساعة.. حركة منتظمة ولكن بدون عقل.. والفنان والغنى لا يتفقان.. ومع ذلك فقد وقعنا فى هذه الغلطة.. ولكن الأمر

الآن يختلف .. يختلف كثيرًا!

أعود ثانية إلى الميدان الواسع، شاب وفتاة يلتقيان في قبلة طويلة بأحد أركان الحديقة التي تتوسط الميدان.. وأجراس الكنائس تعلو من جديد!

٣

في اليوم الثاني لنا في « نابولي » كانت الصورة مختلفة تمامًا. طوابير السيارات تسد الشوارع، وأغلبها سيارات صغيرة ذات طابع خاص ولا تتسع إلا لاثنتين، والإيقاع سريع في كل شيء، والإيطاليات الممرعات إلى العمل نوعان.. إما رشيقة كنجيات السيما.. أو ضخمة في نصف حجم الفيل ونادرًا ما كنت أرى الوسط بين الاثنين.

وكالعادة تزاحم ركاب السفينة على المحال التي حرموا منها في المرة السابقة بسبب عطلة الأحد، وكان أكثر الزحام على المحل الرئيسي في « نابولي » واسمه « أويم »، وهو من نوع « السوبر ماركت » الذي تجد فيه كل شيء.. وكان من الممكن أن يمر الأمر بسلام لولا صيحة الفزع التي أطلقها صديقنا « سيد ».. فقد اختفت فجأة « ريبطة » كبيرة دفع فيها كل ما معه من « ليرات » إيطالية.. ورحبت معه نتجول في جميع أنحاء وأدوار المحل بحثًا عن الربيطة لكن دون جدوى.. البائعات في المحل لا يفهمن غير الإيطالية، وتنفسنا

الصعداء عندما وجدنا واحدة تعرف بعض الكلمات بالإنجليزية، وكان الحل الذي رأيته أن كتبت على ورقة بعض الكلمات الايسطالية، وطلبت منا أن ندور بها في أنحاء المحل ليقراها كل من نقابله لعله يكون قد صادف الربطة. وفعلنا ما طلبت منا.. ولكن دون أى فائدة.. ضاعت الربطة وضاعت الليرات!

بعد ساعات، والسفينة تتوسط البحر، كان صديقنا «سيد» مازال يتحدث عن الذى حدث له فى «نابولى»، ثم هب مرة واحدة واقفاً عندما سمع واحداً من الركاب يقول إنه وجد «ربطة» دون صاحب فى الركن الذى كان يتزاحم فيه ركاب السفينة، وأسرع «سيد» معه إلى حجرته.. وكانت المفاجأة الكبيرة.. «الربطة» المفقودة أمامه!

كان يقول وهو يضرب كفا بكف: «فقدتها فى نابولى.. ووجدتها فى عرض البحر»!
سألته: هل كنت تأمل فى أن تجدها ثانية؟

وقال: اطلاقا.. لقد أبحرت السفينة وفقد الأمل تماماً.. ولكن الذى يحيرنى.. هو كيف تأكد من وجدها أنها تخص واحداً من ركاب السفينة.. هل أجد عندك الجواب لهذا السؤال؟!..
وابتسمت دون أن أرد عليه.
وأصر على أن يحتفل بهذه المناسبة.

واحتفلت معه دون أن أعرف أننى تنتظرن بعد لحظات أعجب
مفاجأة فى حياى!

٤

كنا فى صالة الطعام، وكنت أجلس إلى المائدة المخصصة لنا والتي
لا تتغير طوال الرحلة.. «سيد» و «لطفى» وأنا.. وفى أول الأمر
جاء «توى» الذى يقدم لنا الطعام ليضع أمامى زجاجة «نبيست»
يونانية، وقلت له على الفور إننى لم أطلب هذه الزجاجة.. ومال
ليهمس فى أذنى.. «ستعرف بعدين».

وانشغلت فى تناول الطعام ثم فجأة دوت فى الصالة أصوات
فرقة موسيقية قادمة وهى تنشد الألحان المرحية.. ثم ظهر وراءها
طابور يتقدمه الضابط الإدارى للسفينة وعلى يده «تورته» بها شمعة
واحدة مشتعلة.. وكنت سأنشغل فى تناول طعامى ثانية، عندما رأيت
ما دفع الدماء إلى وجهى وجعلنى أرتبك وأكاد أقوم هاربا من صالة
الطعام.. كانت الفرقة الموسيقية تتجه ناحيتى.
وكان الطابور الطويل يتجه ناحيتى أيضا.

وتوقف الضابط الإدارى أمامى تماما، ثم مال على ليقول وابتسامة
واسعة تحتل وجهه كله: «كل سنة وأنت طيب»!
وساد المهرج فى صالة الطعام، وتعلقت كل النظرات بى، ثم
تسابق الذين يحيطون بى ليشدوا على يدى ويهتفون بعيد ميلادى. كل

هذا وأنا أكاد أكون في حالة يرثى لها من اللاوعى.. عيد ميلادى؟.. كيف عرفوا ذلك، ولماذا لم يخبروني قبل أن تجيء هذه الفرقة الموسيقية، وقبل أن يهاجمنى ذلك الطابور الذى يتقدمه أحد الضباط؟!

ويقول الأصدقاء فى آخر الليل، أننى تمالكت نفسى بعد لحظات، وأمسكت السكين لأقطع أول قطعة من « التورته » وأهديتها إلى كابتن السفينة.. ثم تمالكت نفسى أكثر وأنا أرد على تحيات المهنات والمهنئين بعيد ميلادى.. ثم أسرعت هارباً من صالة الطعام وأنا أكاد أقع على الأرض!



كل شئ يجرى فى سرعة مذهلة بعد أن غادرنا السفينة وركبنا السيارات التى ستذهب بنا إلى « الريفيرا » الإيطالية.. تعليقات المرشد السياحى لا تتوقف، والسيارة تعلو بنا بين الجبال ولا تريد أن تتوقف حتى عندما بدأت تلامس السحاب، سلسلة متصلة ومتناسقة بالخضرة وبالورود من الجبال العالية، الشاهقة، والملاصقة لشاطئ البحر وبيوت صغيرة متناثرة فى أنحاء الجبال ولا يمكن أن تصدق أن يعيش فيها بشر.. وأكاد ألهث وأنا جالس مكانى.

السيارة معلقة أعلى الجبل.. لتتحدرك الخضرة تحتها وتنحدر حتى تلامس زرقة البحر.. وأحاول أن أمزج بين استمتاعى بقمة جمال

الطبيعة التي تحيط بـ. ورغبتي في معرفة كل شيء عن هذا المكان.. ولكن كلمات المرشد كانت لا تسعفى.. كلمات سريعة وسيارة أسرع. نحن الآن في شواطئ «مرجريت» و «رابيلو».. القمم العالية التي وصلنا إليها الآن هي قمم «كامولي».. انظروا.. هناك تمثال المحارب والسياسي القديم «غاريبالدي» بالتأكيد أنتم تعرفون أنه هو الذي وحد إيطاليا وسيسليا.. ثم انظروا إلى هذا التمثال.. لابد أنكم تعرفون صاحبه.. إنه «كريستوفر كولبس» والإثنان من أبناء «جنوة».. هذه الأماكن الساحرة شهدت أكثر مواقع الرومان في العصور القديمة.. كما أنها شاهدت المعاهدات التي وقعت في نهاية الحرب العالمية الثانية. هذا المستشفى الذي يعلو الجبل، إنه مستشفى «جازلين».. وهو مليونير إيطالي معروف ماتت ابنته الوحيدة فقرر أن يبني هذا المستشفى ليخصص لعلاج الأطفال.. إنه أكبر مستشفى للأطفال في أوروبا كلها وقد تكلف بلايين الليرات.. نعم.. تستطيعون الآن النزول من السيارة لدقائق معدودة حتى تلتقطوا ما تريدون من صور ومناظر! وقلت لنفسي «بل لكي نلتقط أنفاسنا»!

وكأنما الرجل يقرأ أفكارى.. فقد قال لي على الفور: «معدرة لأننا نسرع في تحوالنا.. فلا وقت لدينا.. والسيارة ستعود من طريق آخر يعتبر معجزة هذا العصر.. أنفاق بطول مئات الكيلو مترات وتخترق هذه الجبال التي صعدناها واحداً بعد الآخر.. أنفاق تحتها الإيطاليون في بطن الجبال على مدى سنوات طويلة.. ويسببها سنعود

في وقت أقصر.. وربما نستطيع تمنية بعض الوقت على «الريفيرا»
الإيطالية.

وعدنا نلث من جديد!

٦

في طريق عودتنا من «جنوة» إلى السفينة.. بدأت أدرك أنه
مكتوب علينا الآن أن تكون علاقتنا بالأرض علاقة خاطفة.
البحر في الأيام السابقة كان للمتعة والتأمل.
والأرض الآن هي لحظات التأمل والمتعة.
يتلقفنا البحر.. ونقف وقفات طويلة لنستطلع الأرض وما عليها
من جبال.. ومن خضرة.. ومن عناق مع السماء.. ثم نرى كل
ذلك وهو يختفي لتنفرد أمامنا.. وحدها.. القمم الزرقاء!

الحلوة مرسيليا!

لم أكن قد شاهدت من قبل تمثالاً من الذهب الخالص. ولم أكن قد شاهدت تمثالاً يقف شائعاً على مثل ذلك الإرتفاع الهائل... الذى يعلو الجبال كلها.. ويطل بيد مبسطة. حانية على الخليج كله بما فيه من بيوت.. وخضرة. وزرقة البحر.

التمثال للسيدة العذراء.. والكنيسة هى «نوتردام دى لا جارد» والخليج هو «مرسيليا». وأنا واقف أشهد ذلك كله بجوار قطعة رخامية نادرة تمثل السيد المسيح.. والشعاعات الذهبية المعانقة لشعاعات الشمس تضوى بالجلال. داعية إلى باب الكنيسة.. وإلى رحابها المتسعة فى دورين يعلو كل منها الآخر. وعندما أدخل أشعر كأن الزمن قد توقف مرة واحدة، بعد ما غادرت السفينة فى الميناء

كنت أسرع خطواتي لألتقي وأصافح كل ما يؤكد أننى فى «فرنسا» الآن. ولكن السيارة أخذت ترتفع بنا وترتفع.. ثم توقفت عند الباب الذى تعلوه «السيدة الحارسة» فكان اللقاء وكانت المصافحة مع شعاعات ذهبية تجمعت لتشكّل «فرنسا» فى عيني وقد أحاطتها حالة من الجلال. ومن الجبال المقدس!

وعندما هبطت الجبل.. لم يفارقنى ذلك الانطباع. وكان كل شيء حولى فى «مرسيليا» فى صلاة طويلة لا تنتهى. البيوت الصغيرة المتشابهة، المتناسقة، والمساحات الخضراء التى يحرصون عليها حرصهم على الإنسان. والسيارات التى تنساب فى الطريق وكأنها بغير موتورات. وخطوات الناس التى تكاد لا تلامس الأرض. ثم أصواتهم التى تقترب من الموسيقى الخافتة. ولا تتعدها إلا إلى الحمس..

أخذتني الجلالة، وأصبحت لا أرد على رفاق الرحلة إلا بالإشارات وعندما عرض واحد منهم أن نجلس فى أحد المقاهى لنلتقط أنفاسنا لم أعترض وإن ظللت على ما أنا عليه من صمت. اجلس بينهم وذهنى شارد. هل يمكن أن يكون إيقاع الحياة بهذه الصورة. وهل الإيقاع فعلاً حالم إلى هذا الحد؟.. لا أعرف.. فى اليونان وفى إيطاليا إيقاع الحياة كموسيقى «الجاز» الصاخبة.. ولكن ما استشعره هنا.. فى تلك اللحظات. كأنه أنغام «التانجو». ولم أكن أدرك أن صديق «الدكتور عادل» يشدنى من يدي فى عنف.

وعندما التفت إليه أخيراً. انتبهت إلى أنه يقول :
 «لقد اتفقنا على أن نذهب إلى أحد الملاهى الليلية»
 كدت أستنكر ذلك. ولكنى قلت وأنا أشير إلى ضوء النهار :
 «الآن؟.. إن الشمس لم تغب بعد».
 وكان «الدكتور عادل» يضحك وهو يقول :
 «هل نسيت أننا في فرنسا.. لابد أن نستمتع بوقتنا الضيق هنا
 إلى أبعد حد.. ولعلمك الملاهى هنا مفتوحة ليل نهار».
 أحسست أنه يتشلى من عالم آخر. ورددت في دهشة :
 «لا أصدق!»

فقال وهو يشدني من يدي لنغادر المقهى :
 «تعال لترى بنفسك.. أنا لا أعرف ماذا حدث لك مرة
 واحدة.. الذى أعرفه أن مرسيليا ميناء.. والموانى كلها متشابهة» !
 وسبقنى فى الطريق متجاهلاً كلماتى التى تستنكر ولا تصدق !

* * *

فى الطريق، كنا نسير. دون أن ندري. فى طابور. كل منا
 مشغول بأكل التفاحة التى فى يده. وإن تلاقت نظراتنا فى اللحظة
 التى تعبر فيها فتاة ينسدل على كتفها شعر ذهبي وتكافئ العيون
 المتعلقة بها بابتسامة رقيقة ثم تمضى بعيداً كالطيف. وتوقفت أمام محل
 لبيع العطور. ولم أتردد فى أن أدخل وأنا أتوقع أن الطابور سيقفدنى

ويجيء ورائى هنا. ولكنى عندما عدت بنظراتى إلى الطريق لم أجد
أحدًا منهم!

استقبلتنى البائعة بالصوت الموسيقى الهامس نفسه. وعندما قلبت
لها عن اسم العطر الفرنسى الوحيد الذى أعرفه أسرعى لتحضره
لى.. وفى لمح البصر كانت قد أعدته فى ربطة كأنها «بوكيه» ورد..
ثم كتبت فى ورقة الرقم الذى تطلبه من الفرنكات. وترددت أمام
هذا الرقم. وسمعتها وهى تقول بالصوت الهامس نفسه: «أرجوك لا
فصال.. ستدفع وسأعطيك مع زجاجة العطر النسائية هذه.. زجاجة
عطر هدية من أجلك أنت»!

دفعت الثمن.. وأخذت الزجاجتين.. واستدردت لأنصرف وقد
تحول ترددى أمام ارتفاع سعر زجاجة العطر إلى اقتناع وكللمات
شاكرة.. وقبل أن أدرك الباب. سمعت صوتها ثانية:

«دقيقة واحدة من فضلك.. يبدو أن الجو حار اليوم..»
وقبل أن أرد عليها كانت قد أغرقت وجهى وملاسى بعطر
ينبعث من زجاجة فى يدها. ثم قالت فى وداعة:

«هل أعجبتك هذه الكولونيا؟»

وهزئت رأسى موافقًا على الفور.. فعادت تقول:

«إذن.. فإليك زجاجة أخرى من الكولونيا هدية»!

هديتان من أجل شراء زجاجة عطر واحدة؟.. هل هم
حريصون على إرضاء المشتري إلى هذا الحد؟.. إن الهدية الحقيقية

التي أحسست أنها لا تقدر بقيمة هي تلك المعاملة البالغة الرقة التي تتعامل بها البائعة معي، ومع غيرة من الذين دخلوا المحل في الوقت نفسه.. وأسرعت إلى الطريق لأبحث عن الأصدقاء، وأرؤى لهم ما حدث. واكتشفت بعد أن قطعت الطريق حتى نهايته أنني أصبحت وحيداً.. وأننى لا أعرف إلى أين أذهب بعد ذلك.

ثم أيقنت أنني فعلاً ناثه في مرسيليا!

* * *

اشترت مجلة وجريدة.. وجلست في إحدى الحدائق وقد وصلت إلى قرار بأنه قبل أن يحين الموعد الذي ستغادر فيه السفينة الميناء أكون قد أخذت سيارة أجرة إلى هناك، ولا داعى للإحساس بأى نلق.

كانت عيناى متعلقتين بالعنوان الرئيسى في جريدة «لومانيه» وكان العنوان عن إحباط مصر محاولة أربع طائرات «فانتوم» إسرائيلية اختراق المجال الجوى عند «القنطرة» و «الاسماعيلية» وإسقاط إحدى هذه الطائرات.. تعالت دقات قلبي بالزهو، وأخذت أعيد قراءة ما تحت العنوان أكثر من مرة. ثم سمعت صوت الذى يجلس إلى جوارى دون أن أكون قد انتهيت إلى وجوده:

«لا بد أنك من مصر.. ولا بد أنك سعيد لهذا الخبر!»

لم أرد عليه، وبمنظرة سريعة تفحصت وجهه الذى تدل ملامحه

على أنه تجاوز الستين. وقد وضع فوق رأسه « البيره » التقليدى.. وأسند كلتا يديه على العصي المثبتة بين رجليه، وسمعته يقول من جديد :

« هذه الجريدة تحترمها كلنا.. ولعلك تعرف أننا عايشنا هنا فى فرنسا الظروف نفسها التى تعايشونها أنسم الآن.. فى أيام الحق النازيون بنا هزيمة كبيرة، وظنوا بعدها أن فرنسا قد انتهت إلى الأبد.. ثم كانت كلمة «ديجول» الرائعة التى جاءت من ضمير فرنسا «لقد خسرنا معركة.. ولكننا لم نخسر الحرب».. وأعتقد أن هذه مهمتكم الآن.. وهى مهمة صعبة.. القوة هى المنطق الوحيد.. وعندما تكون قويا فإن الجميع يحترمونك.. حتى عدوك!»
قبل أن أتكلم تكلم هو ثانية :

- هل تعرف أننى عشت فى مصر فترة طويلة.. لقد كنت أعمل مدرساً فى إحدى مدارس الاسكندرية.. مازلت أذكر اسمها : العباسية.. وكانت السنوات التى عشتها هناك من أسعد سنوات عمرى. أما الآن فأنا عجوز ووقى كله للقراءة.. أو كما تقولون فى مصر «على المعاش».. ترى هل تغيرت الإسكندرية كثيراً.. لقد فات الآن أكثر من ثلاثين سنة منذ تركتها وعدت إلى فرنسا!»
إنشغلت معه بالحديث. وعندما تذكرت أننى يجب أن أعود إلى الميناء لألقى بالسفينة، نظرت إلى الساعة ثم قت مرة واحدة كالمليدوغ، فليس ألامى إلا عشر دقائق فقط. وأسرعت مغادرا

الحديقة وأنا ألوح له بيدي، ثم وقفت في الطريق على اعتقاد أنني سأتمكن من إيقاف سيارة أجرة لتسرع بي إلى الميناء، ولكن سيارات الأجرة كانت تعبر أمامي واحدة بعد الأخرى دون أن تتوقف إحداها مهما أتيت من اشارات، وانتبهت ثانية إلى كلمات الرجل العجوز الذي كان يجاورني في كرسي الحديقة وقد جاء ليقف إلى جانبي :
«موقف سيارات الأجرة هناك عند الطرف الجنوبي للحديقة. ولا بد أن تذهب إلى هناك»!

لم أعد أدرك ما يحدث. ولكنني أفقت عندما وصلت إلى الرصيف الذي رست عنده «سنييتا». فقد كانت الأصوات متداخلة وهي تنادي اسمي في لهفة. وتنفس الصعداء عندما رأيتهم يعيبدون سلم الباخرة بعد أن كانوا قد بدأوا فعلاً في رفعه استعداداً للرحيل!

* * *

ونحن وسط الموج عدت بنظراتي إلى «مرسيليا». الظلام يلفها بغلالة لا تعترف بالأضواء المتناثرة هنا وهناك. . . وخیل إلى أن أسمع نغمات «تاججو» هادئة. . . وانني أرى .. رغم الليل - ذلك التمثال الذهبي يعلو كنيسة «نوتردام دي لا جارده».. وأن لم أفارق بعد.. الخلوة مرسيليا!

عائد من الأفق!

١

«نصيحتي لك ألا تذهب إلى لندن هذه الأيام!».
«لماذا؟!».

«ليس الضباب هو السبب، وليست الأمطار إنها الإضرابات، لقد تركتها منذ أيام وكل شيء فيها فوضى، إضراب لعمال النظافة، إضراب لعمال الشحن، فوضى لا أول لها ولا آخر، أنا أدرس هناك، ولكني فضلت أن أمضي الإجازة في هذه الرحلة البحرية، وبعدها سأمضي بقية الإجازة في اليونان.

كنت مدعوا على الغداء على مائدة كابتن «سيتتيا» المتألق دائما وكأنه ذاهب إلى الكنيسة في حفل زفافه «بانيوق جيانولاتوس»، وكان معنا على المائدة نفسها ابنه الذي يدرس في إنجلترا، وصديق له

إنجليزى، والإثنان حرصا على أن تسترسل شعورهما كما تسترسل شعور البنات، ولكن أفكارهما عندما دار بيننا الحواد كانت تسبق هذا العصر!

قبل الغداء، كانت راودتنى فكرة أن أهرق من السفينة، أهرب منها، أسافر عند أول ميناء، بأية طريقة، إلى باريس أو إلى لندن، وعلى المائدة كان «كونراد» يقول وهو يهز رأسه لتبتعد عن عينه خصلة الشعر المنسدلة وكأنه الساحرة معبودة الشاعر «بايرون»: «لقد اخترت أن تقوم بهذه الرحلة وعلى هذه السفينة، واختيارك هو قمة حريتك، فلماذا تريد أن تكبل حريتك بالقيود؟!» قلت فى دهشة: «وهل القيود فى الانطلاق إلى مكان جديد؟!»

عاد يقول: «لا أقصد ذلك.. وإنما أقصد ما قد يشغلك من أجل تنفيذ هذه الفكرة الجديدة.. هل تعرف ماذا يفعل القمر عندما يشاهد أمامه قطيعة من الغزلان؟!.. إنه يصبو بعينه على واحدة منها.. واحدة فقط.. ثم لا يشغل نفسه ببقية القطيع.. ويتبعها بعد ذلك بكل حواسه، وعندما يجرى القطيع فزعًا، فإنه لا يجرى مثلما يجرى بكل أفراد.. إنه يتبع الواحدة التى اختارها منذ البداية.. وقد تغيب عن نظره لحظة وتقرب منها واحدة أخرى.. ولكنه لا يلقى لها بالاً حتى ولو كانت فى متناول أنيابه.. يتركها ليطارد التى اختارها منذ البداية.. ويظل يطاردها حتى يفترسها فى

النهاية.. هل فهمت قصدى؟!

وسألته في انبهار «ماذا تدرس؟!»

قال وهو يهز رأسه من جديد: «أدرس الرياضيات، أعانى من
 طلاسماها، ولكن ماذا أفعل.. هذا هو اختياري منذ البداية!»
 تدخل الكاتبين «جيانولاتوس» في الحوار ليسألنى:
 «هل عندك أولاد؟».. وعندما هززت رأسى علامة الإيجاب،
 استمر قائلاً:

«قد تدهش إذا قلت لك أنه قد مضى الوقت الذى كانت فيه
 مهمة الآباء هى مواصلة توجيه النصائح لأبنائهم.. هل تعرف
 لماذا؟.. لأن الأبناء هذه الأيام اختاروا أن يكونوا أبناء الحياة
 نفسها.. منها يتعلمون، ومن تجاربهم معها يتلقون الدرس وراء
 الآخر.. مهمة الآباء هذه الأيام تنحصر فى ألا تكون لهم أخطاء..
 فتلك العيون المتفتحة ترقبهم فيما يقرب السخريه.. وعند أول خطأ
 يتحولون إلى فلاسفة.. ويا ويل الآباء من الأخطاء.. ومن فلسفة
 الأبناء».

قال «الكاتبين» ثانية ونحن نستعد لمغادرة المائدة «أنتم مدعوون إلى
 حجرة القيادة.. لتكونوا أول من يشاهد جزيرة «رودس»..
 الإيطاليون يفخرون بجزيرة «كابرى».. ولكن جزيرتنا اليونانية
 «رودس» أجمل بكثير.. وبعد لحظات ستأكدون بأنفسكم من كلامى
 هذا.. هيا بنا إلى أعلا السفينة!»

لم تتوقف السفينة عند «رودس» مرت بجوارها، لتبدو الجزيرة من بعيد وكأنها زهرة عملاقة تطفو فوق السطح الأزرق، ولاحظت أن الجزيرة ليس لها ميناء، السفن تتوقف على مسافة قريبة، ثم ينتقل من يريد زيارتها الزوارق إلى هناك، وكل ما نشاهده الآن هو مجموعة من البنايات العالية الزاهية الألوان، وسألني «الكابتن» ولعة الزهو في عينيه :

«ما رأيك؟.. أليست أجمل الجزر؟!

ابتسمت وأنا أرد عليه :

«من بعيد تبدو جميلة.. ولكن الحكم من بعيد لا يكفي.. منذ لحظات كنت تتكلم عن أخطاء الآباء.. وكأب لا أستطيع الآن أن أقول إن «رودس» هي أجمل الجزر»!

تعالت ضحكاته ثم قال ويده تحبطني، على كتنى :

«معك حق.. ولكنى أتحمل المسؤولية فيما أقوله»!

كان «كونراد» الانجليزي واقفا إلى جانبي، وكان واضحا أنه يتململ في وقفته ويود لو يفادر مكانه عند سور السفينة، فسألته وأنا ابتعد عن المكان ليتبعني حتى أجلس على مقعدين متجاورين :

«شباب هذه الأيام يجب أن يبدو غامضاً.. والانهامات الموجهة إليه كثيرة.. أهمها تتعلق بمظهره.. وأقلها أهمية عن طريقة ممارسته

لحياته .. وللحب .. ما رأيك ؟!

قربت تقطيعه بين حاجبيه، وقال في هدوء بالغ وقد عقد يديه فوق صدره :

« هل سمعت عن شيء اسمه «الملل» .. لا بد أن تكون قد سمعت عنه . ولعلك قد عانيته .. شباب هذه الأيام .. نحن .. كلنا أبناء ذلك «الملل» .. لا تصدق ما قاله الكابتن من أننا أبناء «الحياة» نفسها .. نقرأ التاريخ فنجد حكته تتلخص في أنه يعيد نفسه .. ونقرأ قصص الحب الكبيرة .. فنضحك من كل تلك التراجيديات التي تنسج خيوطها .. نحن لا نحب أن نبذو غامضين . نحن - وصدقني - نطلع في شوق جامح إلى ما يمكن أن يكون غامضاً .. الميزة الوحيدة للأجيال السابقة أنها كانت تنعم بلذة الاكتشاف .. مرة يكتشفون الكهرباء .. ومرة يكتشفون الذرة .. كانوا أمام الحاجة التي هي أم الاختراع .. ولكن انظر إلينا الآن .. إننا نجد باستمرار ما هو فوق حاجتنا .. حياتنا سهلة إلى أبعد الحدود .. لا نعانى من الحرمان في أي شيء .. في الحب، أو في الطعام .. أو .. أرجوك لا تقاطعني .. أعرف ما ستقوله .. إن هذا لا ينطبق على كل شباب العالم .. هناك الشباب الذي يعاني من الحاجة ومن الاضطهاد .. ويعانى أكثر من ويلات الحرب .. ولكن هل تعتقد أن هناك انفصلاً بين شباب جيل واحد مهما اختلفت الأماكن والحضارات ؟ .. بالطبع لا .. عدم حاجتي أنا .. وعذابه هو .. ذلك

هو قلة التناقض.. وهو تناقض لا يعتبر هذا الجيل من الشباب مسئولاً عنه.. إنهم الكبار وأفكارهم البالية عن المصالح وعن النفوذ.. ولو تركوا العالم للشباب.. لطبقوا فيه كل تلك النظرية العلمية البسيطة للغاية.. نظرية «الأواني المستطرقة».. الحياة كلها في مستوى واحد.. لا ارتفاع ولا انخفاض.. لا تحمة ولا تصور.. الحياة قصيرة فليستمتع بها كل من يتنفس بالحياة.. ولكن هل يترك لنا الكبار هذا العالم.. إنهم يضللون أنفسهم عندما يعتقدون أنهم يفعلون كل ما يفعلون من أجلنا نحن.. الحقيقة أنهم يفعلون كل شيء من أجل أنفسهم.. أما نحن فامتداد لهم.. كائنات حية يمتلكونها.. هكذا يتصورون.. ولا بد أن يتلاشى هذا التصور قبل أن يتلاشوا جميعاً.. جميعاً!

٣

نحن نقرب الآن من جزيرة أخرى، ولكنها كبيرة ومشهورة، والسفينة تتجه إلى طرفها الجنوبي، لتقف قريباً من شاطئها، ثم نستقل الزوارق إلى مدينتها التي تعتبر عاصمة إمبراطورية «النيذ» التي تمتد إلى دول كثيرة في أوروبا، وكل رعاياها من الزجاجات الحمراء والبيضاء!

قبرص، أو جزيرة «أفروديت»، والمدينة «ليماسول»، وعلى مرمى البصر بناء عال لكنيسة، وقريباً منه مثلثة جامع! تقول «أرينا» ابنة «ليماسول» حمراء الشعر: «أنتم تعرفون أن

غالبية سكان قبرص من أصل يوناني، والأقلية من أصل تركي، وحتى وقت قريب كنا نتبع التاج البريطاني ونحن الآن دولة مستقلة و...»

كعادي لا تجاوب مع الكلمات المحفوظة وأترك الجمع لأتجول في شوارع «ليماسول» ولأضرب بأقدامي فوق جزيرة «قبرص»! كل المدن التي زرتها من قبل لها طابع خاص، بصمة واحدة لشوارعها، ولبيوتها، ولأهلها، ولكن «ليماسول» تختلف، تكاد تكون بغير شخصية محددة، التراث اليوناني يختلط بالتراث التركي والإنسان يحجم فوقها الطابع الانجليزي، واللغات متعددة، والملاصيح متباينة، ولا يكفي أن تقول عن واحد تقابله أنه «قبرصي» وينتهي الأمر، ولكن الظاهرة الملفتة للنظر فعلا هي كون غالبية الذين تراهم من الأهالي من المعجائز، نساء ورجال تخطوا الستين، ورسم الزمن على وجوههم أخايد كأنها موج البحر، وفي عيونهم بريق يختلط فيه الأسى مع الرغبة في الاستمرار في الحياة!

وحتي عندما زرنا مصنع النبيذ الكبير، ورأينا جبال «العنب» وهي تتحول إلى جدول صغير من «النبيذ»، فإن أكثرية العاملين في المصنع من المعجائز، ونادراً ما نرى رجلاً أو فتاة في عفتوان الشباب.. وتحيرني هذه الظاهرة، وأسأل حمراء الشعر «أرينا» عندما التقي بها ثانية:

«لماذا تبدو «ليماسول» وكأن قد هجرها الشباب؟!»

لم ترد على سؤالى على الفور، تعلقـت نظراتها بشئ بعيد، ثم
قالت فى تأن وكأنها تختار الكلمات بحرص :

«هذه مشكلة حقيقية.. ليس السبب الوحيد أن الشباب يهاجر
وليس أيضاً فى تلك الحروب الأهلية التى تعاني منها الجزيرة منذ
سنوات طويلة.. ولكن السبب كما أعتقد هو أن الجميع هنا يحبون
العمل.. أو اذا شئت الدقة.. لابد أن يعملوا لكى يعيشوا.. وعلى
العموم «لیماسول» هى إحدى مدن «قبرص» وليست «قبرص»
كلها.. وقد يختلف رأيك لو زرت «نيقوسيا».. وفى الحقيقة أنا من
هناك»!

وأعود أسألها: «وما هى خططك للمستقبل.. هل تفكرين فى
الهجرة أيضاً؟»

زمت شفـتها ثم قالت: «ولماذا أهاجر.. أنا طالبة الآن.. وفى
الصيف أجيء إلى «لیماسول» لأعمل مرشدة سياحية.. ولكن.. من
يعرف.. فربما تجد ظروف بعد تخرجى وساعتها سأعيد التفكير من
جديد.. ليس هناك من يكره السفر والترحال»!!
فعلا.. من يكره السفر والترحال؟



رفقة البحر الأمواج توشك على نهايتها، بعد ساعات نكون فى
«بيروت»، وبعد يوم واحد نعود إلى «الاسكندرية»، أحس وأنا

أنتطلع إلى القم الزرقاء، التي تحيط السفينة من كل جانب وكأن فتحت عيني لتوى بعد إغفاءة قصيرة طافت بى أحلامي فيها عبر بلاد كثيرة، إختلفت الأماكن، واختلفت اللغات، ولكن الإنسان بقى هو الإنسان، تعلمه الحياة أنه لا مفر من مواصلة الليل بالنهار، ويدفع به الملل إلى أن يتطلع إلى المكان الآخر الذى يعيش فيه إنسان غيره، تماماً كأوراق الكوتشينه، ورقة مكان ورقة، وكأن بالذى أتى فى حياته كل ما يستحق عليه نعم الفردوس، وهناء الجنة، يصرخ بعد أيام فيها، لقد ضقت بالنعم وضقت بالجنة، أين من يأخذنى إلى سكير النار، أتوق للوهج، للهب، لاللسنة الحارقة ولصرخات العذاب!

وكانى بالأمواج تتعاقب وتفترق فى ضحكات لا نهاية لها من حال ذلك الإنسان الذى تحمله لتسافر به، ثم تحمله لتعود به، وهو فى أول الأمر يفور بالحماس، ثم هو فى نهاية الأمر خائر القوى مستسلم للنعاس، فى أمل أن تراوده أحلام جديدة، فى أن يرحل إلى مكان جديد!

فى «سان بيكو» على شاطئ «الأوزاعية» فى بيروت كان الصديق «عبد» بكسر الباء - كأنما يقرأ أفكارى، كان يقول :
«وماذا تظنون أن الإنسان يريد من الحياة؟.. إن مشاكلها لا تنتهى.. وليس أمامه إلا أن يجتلس لحظات من «البسط».. من المتعة.. لأنه بعد هذه اللحظات عليه أن يصارع صراع الجبابة حتى

يفوز بلحظة « البسط » ثانية !

ثم يقول وهو يرمى إلى حلقه بجرعة من الزبيب الزحلاوى : « فى يوم كنت مفلساً .. ثم وجدت أمامى رجلاً أمريكياً يطلب منى أن أدله على محل يبيع الألبان .. وأرشدته إلى المحل .. وفوجئت بصاحب المحل يقول لى إنه لا يستطيع أن يبيع بيعة بمليون ليرة ويعطينى أكثر من ١٢ ألف ليرة .. كنت لا أفهم ماذا يعنى .. ولكنى وجدت فى يدى ١٢ ألف ليرة مرة واحدة .. وكالجوعان الذى هبطت أمامه مائدة من السماء عامرة بكل ما طاب ولذ .. رحت أنفق ذلك المال الطائل بلا حساب .. فتيات .. وموائد خضراء .. أحيانا أقول إن ذكريات المحطات الممتعة أحسن بكثير من أحلام اللحظات التى نتمنى أن نحى .. ثم لا نحىء ! »

٥

هل سبقت خيوط الفجر ؟ .. كنت أعرف أننا سنصل إلى الإسكندرية بعد ساعتين ، ولكنى وقفت عند السور العالى وكأنى الملاح التائه المتشوق إلى الأرض ، وإلى المرفأ ، أو كأننى تركت بلادى منذ سنوات لأسابيع قليلة ، وهانذا تدمدم فى مشاعرى كل أحاسيس الحنين والعودة !

تقترب السفينة أكثر .. فى الأفق الشاحب تبدو ظلال لا أتبينها تماماً ولكنى كنت كمن يراها أمامه على بعد خطوتين ، وتلك المشذنة

العالية أعرفها جيداً، إنها مثذنة المرسى أبى العباس، إنها ليست
الاسكندرية فقط التى تنتظرن فى ذلك الشريط الشاحب، إنها «مصر»
كلها، السفينة لم تعد بيتنا، لم تعد الملجأ فى ميناء بعد ميناء، بيت
أماننا، هناك، بل هنا، أماننا على مرمى القلب والبصر!

البوغاز والحاجز الصخرى الذى كان يحلونا ونحن صغار أن
نطلق عليه «الرملة البيضاء» ونسابق إليه بالسباحة أو بالزوارق
وهذه اللنشات المسرعة إلى السفينة تنبعث منها الصفارات المرحبة
وكأنها ابن البلد الذى تمر عليه، فيرتفع نداؤه «إتفضل»!

السفينة الآن مشدودة بجبلين، واحد عند مقدمها، والآخر عند
ذيلها، وقد استسلمت لهما بلا حول وبلا قوة ليجذباه - بالعرض -
إلى رصيف الميناء.. لتستقر بجواره، وتهدأ!

الصيحات تتجاوب بين الواقفين عند سور السفينة وبين الذين
تجمعوا فى شرفات الميناء فى انتظار العائدين، ثم تخفت الصيحات
عندما يتلاحم الجميع بعد أن لم تفصل بينهم مياه البحر. وأقف على
الرصيف لأتطلع إليه من جديد..

الرحابة، والامتداد اللانهاى، العناق مع السماء.. والأفق!!
وهدير الموج..

وكان شيئاً لم يكن!!

بالبطائرة إلى غابات العصور الوسطى

عندما عزف لى شويان!

بعد خمسة أيام فى «وارسو» كنت قد تأقلمت على الجو هناك.
الضوء الباهر للنهار يبدأ من الثالثة صباحًا ويمتد حتى الثامنة مساءً،
والمطر يحتمل أن يسقط فى أى لحظة، والجو حار خائف، ثم بارد
عاصف.. لذلك يجب أن تكون بالقميص والبنطلون وأن يكون فى
حقيبتك - فى الوقت نفسه - معطف المطر!

وفى ذلك الصباح - وكنا يوم الأحد - دق التليفون فى حجرى
رقم «٢٣٨» فى فندق «يورييسكى» - أى الأوروبى - وكانت
الساعة لم تتجاوز التاسعة ولكن الشمس كانت تفرش كل أركان
الحجرة.

- هالو.. مستر ريسك.. جينسكا تتكلم..

* هالو.. أى خدمة؟! *

- نحن فى انتظارك فى مدخل الأوتيل.. استعد.. سنذهب جميعاً إلى القرية التى ولد فيها «شويان».. سيكون معك صحفيون من روسيا وبلغاريا والجزائر.. ورجال أعمال أمريكان أيضاً.. ما رأيك؟!

* عظيم.. بعد خمس دقائق سأكون معكم!

أعدت النظر إلى جهازى قياس درجة الحرارة داخل الحجرة وخارج الشباك، وتأكدت أن الجو سيكون حاراً. وارتديت قميصاً ونظفوناً وأسرت تاركاً حجرتى إلى هو الفندق وفى صدرى سعادة غامرة لهذه الرحلة غير المنتظرة، خاصة يوم الأحد، وإلى أين؟.. إلى ريف بولندية، وإلى القرية التى ولد فيها شويان وعاش فيها لفترة قبل أن يغادر بولندية ويعيش فى باريس بقية حياته!

* * *

فى السيارة الكبيرة حدث التعارف سريعاً، وخاصة بيننا نحن الأربعة الذين نجلس فى الخلف.

فتاة أمريكية من نيويورك - بياتريس - وإلى جوارها صحفى من موسكو - بوريس راشكوف - ثم صحفى بلغارى لا يتكلم إلا الفرنسية.. ثم أنا.. من مصر!

وفى المقاعد الأخرى.. رجل من إيطاليا، وعجوزان - رجل وزوجته - من أمريكا وصحفى جزائرى - صبحى بلقاسم - وفتاة

من الأرجنتين. ثم المرشدة السياحية التي ظلت طوال الوقت تكرر كل شيء بالبولندية.. ثم بالإنجليزية.. ثم بالفرنسية.. ثم تعيد حصرنا وكأننا مجموعة من الدجاج في قفص، ولكن.. أى مجموعة؟!.. خليط من مشرق الأرض ومغربها، وإن تعذر التفاهم باللغات فاللغة العالمية - الإشارة - هى السبيل الوحيد.. وباحيذا لو استعانت الإشارة بنظرات العيون!

السيارة تخترق الشوارع الرئيسية لوارسو.. وأغلب المحال مغلقة، وها هو القصر الكبير للثقافة - وهو هدية من الاتحاد السوفيتي - يبدو شائخاً رغم ابتعادنا عنه، ورغم أننا كنا نزحف إلى الطريق الزراعى المتجه إلى «جلازوفا فولا».. فى قرية شوبان!

إتسمت بينى وبين نفسى عندما لمحت فلاحه بولندية ترتدى الملابس الزاهية الألوان - أحمر مسخسج! - تماماً كالفسلاحة عندنا، تجلس القرفصاء مع أولادها وزوجها فى عربة خشبية صغيرة يجرها حصان!

الحقول مترامية الأطراف، وهادئة، ولكنها تبدو مفتقرة للإنسان أو لعلها فى غنى عنه.. وكأنها حقولنا الخضراء ظهيرة يوم الجمعة عندما يغيب عنها الرجال.. للاستحمام ثم الصلاة!

الصحفى البلغارى الذى يجلس إلى جوارى - وهو يشبه إلى حد كبير صديقنا الكاتب المعروف محمد عوده - يمسك كتاباً فى يده ولكنه لا يقرأ.. عيناه بين الصحفى الروسى والفتاة الأمريكية إلى

بمينه، ثم ناخيتى وناحية الشباك إلى يساره وأحسست أنه فى حاجة إلى من يتكلم معه، وعلى الفور رتبت ذهنى على استخدام كل ما أعرفه من اللغة الفرنسية.. وقد كان.. فتح الله على بشكل كنت لا أتوقعه.. بل أنى تدفقت أسأله بالفرنسية وأحاورة وكان خريج «سان مارك». وقد عرفت بعد ذلك إننى فعلت ذلك بما يشبه المعجزة، وعلى طريقة «العدو أمامكم والبحر خلفكم...».. فانفكت عقدة الخوف بالفرنساوى!

كيف.. لا أعرف!

سألته عن آخر أخبار صوفيا، وسألنى عن آخر أخبار القاهرة، ثم انزلق الحديث إلى الموقف الآن بعد العدوان، ثم قال إنه يريد أن يسألنى سؤالاً ولكن قبل ذلك يريد أن يوضح شيئاً، وهو أنهم فى بلغاريا، يؤيدون العرب دون أى حدود.. ويستنكرون أطياع اسرائيل العدوانية و..

وقلت: والسؤال؟

وقبل أن يسأل، تمنيت على الله أن يكون السؤال سهلاً أقصد أن تكون لغته سهلة أستطيع أن أفهمها.. واستجاب الله بأن سألنى:

- ما هو الحل؟

وقلت على الفور:

* طريق واحد لا طريق غيره.. الحرب.. وهى بالنسبة لنا

حرب تحرير.. سنخوضها جميعاً وفي كل مكان.. حتى يتحقق النصر
النهائي.

وقال الصحفي البلغاري في حماس :

- نعم.. هذا هو الحل.. وأنا معجب كثيراً بالأعمال الفدائية
«فتح».. لست أنا فقط.. بل كل شعب بلغاريا!
طوال حديثنا، كنا لا نلاحظ أعظم شيء يحدث في الكرسي
الخلقي.. التقارب الحقيقي.. أو التعايش السلمي بين أمريكا والاتحاد
السوفيتي..

فالصحفي القادم من موسكو - بوريس - انطلق في حديث
طويل مع الفتاة الأمريكية - بياتريس - ولكنه لم يكن حديثاً سياسياً
وإنما كان حديثاً مليئاً بالعاطفة .. والغزل!

بوريس يقول : وهل أنت وحدك؟

وبياتريس تقول : نعم.. وهوايتي التجوال في أنحاء العالم!

- مخطوبة؟

- لا.. ليس بعد!

- عظيم.. نستطيع أن نمضي يوماً سعيداً.

- أرجو ذلك.. ولكنني مندهشة أنك تتحدث بالانجليزية
بطلاقة..

وضحك «بوريس» طويلاً قبل أن يرد:

- لسبيين.. الأول أن أكتب بالانجليزية.. والثاني إنني أعزب

وأهوى التجوال مثلك.

بياتريس ليست جميلة جدًا - أغلب البولنديات أجمل منها - ولكنها ترتدى الميني جيب، وجلستها المرتخية تجعلها تبدو وكأنها جالسة بالمايوه.. وبوريس يبدو كنجوم السينما، متأنق، حركاته محسوبة. وقد اكتشفت بعد ذلك أنه «دون جوان» خطير.. لا يجب في الدنيا غير شيئين: الكتابة عن البترول.. ومطارحة الغرام!

مال الصحفي البلغاري ناحيتي ليقول:

- أمريكية وروسى.. قصة عظيمة.. أليست كذلك؟
وقلت مبتسما:

- إنها لا يدعواننا إلى مائدة المفاوضات!

وضحك الصحفي البلغاري طويلا، ومال ناحية «بوريس» يتحدث بالروسية، وانفجر الاثنان ضاحكين، والحقني بوريس-ناحيتي ليقول لى فى همس:

- إنه مجرد استطلاع.. وإذا احببت فسأترك لك مكانى لتجلس إلى جوارها!



بعد ساعة كاملة وصلنا إلى «جلازوفافولا».. وكان الطريق ثم الميدان المواجه لبيت شونان. والحديقة الواسعة المحيطة به مزدحمة بالسيارات الكبيرة والصغيرة، وإلى اليمين مطعم صغير مزدحم بالناس وإلى اليسار مكتب بريد ومحل للمطربات.. وقبل أن نترك السيارة

أعادت المرشدة السياحية المرافقة لنا حصرنا واحدًا واحدًا.. ثم قالت في رقة شديدة :

- أمامكم جولة حرة حتى الثانية عشرة.. وبعدها سيحين دور مجموعتنا لزيارة البيت.. وفي الواحدة تمامًا سيبدأ عزف مقطوعات من موسيقى «شوبان».. ونرجو أن نكون جميعًا في الحديقة!

خرج جميع الدجاج من القفص.. ولكننا نحن الأربعة - أصحاب الكرسي الخلفي - بقينا معًا.. وبدون أخذ رأينا قرر «بوريس» أن يتولى قيادة مجموعتنا وتنظيم الوقت.. أولًا.. جولة في الحديقة.. ثم تناول الإفطار والمربطات.. ثم بقية البرنامج المعروف.. ووافقتنا، ومال هو ناحية «بياتريس» ليقول في رقة :

- هل تحبين أن أحمل حقيبتك؟

- لا أشكرك.. إنها حقيبة يدي!

وفعلًا.. كانت الحقيبة صغيرة جدًا وليست في حاجة إلى من يحملها عنها، ولكن بوريس ظل طول الوقت يعرض عليها حمل الحقيبة.. وهي تعتذر.. وكأنها لعبة بلا نهاية!

حمل كل منا بنفسه ما اختاره للإفطار وجلسنا حول مائدة واحدة.. والشئ الوحيد المشترك بيننا هو عصير الطماطم، وهي غالية الثمن جدًا هنا في بولنדה - الكيلو بحوالى ٦٠ زلوى.. أى ما يقرب من جنيه مصرى ولم يصدقوني عندما قلت لهم إن ثمن كيلو الطماطم في مصر لا يتعدى «زلوى» واحدًا!

عاد الصحفي البلغارى إلى محاولته للحديث معى بالفرنسية..
ولكنى كنت قد استنفدت كل ما عندى خاصة وأن الغالبية الآن
- ثلاثة ضد واحد - للحديث بالانجليزية.. وقال «بوريس» موجهاً
حديثه لبياتريس :

- ستكون مفاجأة جميلة لو تركتنا السيارة وعادت إلى وارسو!
وابتسمت لترد عليه :

- أوه.. ولكن حقيقتى الأخرى فى السيارة.

- هل هذه كل المشكلة؟

وتدخلت أنا قائلاً :

- بالنسبة لها ليست مشكلة.. إنها غنية بالطبع وتستطيع أن تدفع
ثمن سيارة الأجرة حتى وارسو..

وقالت بياتريس فى انفعال :

- لست غنية كما تعتقدون.. لقد ادخرت ثمن هذه الرحلة منذ
أكثر من خمس سنوات وعندما سأعود إلى نيويورك سأبدأ الادخار من
جديد لأقوم برحلة جديدة.

- إلى أين؟

- حتى الآن لا أعرف.. ولكنى أتمنى زيارة اليابان..

وقال بوريس على الفور :

- سأكون هناك.

شئ يقرب من القداسة يغلب مشاعرنا ونحن ندخل بيت

«شوبان».. كل شيء لامع، نظيف، وكأنه كان يعيش هنا بالأمس فقط لا منذ قرن ونصف.

موسيقاه لم تتجاوب في أصداء البيت والحديقة بعد.. ولكن الصمت يكاد يتحول إلى تموجات تلف كل شيء بغلالة من السمو وأصداء الخلود.

هذه حجرة «شوبان» الخاصة.. هنا كان ميلاده... وفي هذا المهد كانت أقدامه تضرب الهواء قبل أن تضرب أطراف أصابعه مفاتيح ذلك البيانو اللامع الذي يتصدر الحجرة.. كل شيء باق كما هو.. النقوش الجميلة على السقف غير العالى.. اللوحات المعلقة على الحائط.. المقاعد.. كل شيء.. كل شيء.

وهذه حجرة أم «شوبان».. ثم هذه هى حجرة أبيه.. هل كانا يدركان عند مولده أنه سيصبح ذلك الفنان العظيم؟.. هل اعدا له البيانو قبل مولده.. وما سر تلك العبقرية التى تفجرت في وجدانه وهو صبى صغير لا يتعدى السادسة فقط من عمره؟.. نظرة خاطفة من الشباك إلى الطبيعة المحيطة بالبيت.. نفس ما كان يراه «شوبان» منذ صباه.. الهدوء الذى يكاد يكون لساناً متحركاً للصمت؟

ما سر تلك العبقرية الخالدة؟

كيف طوت هذه الجدران البسيطة روح ذلك الصبي «فرديريك» ثم أطلقتها لتهلأ العالم بكل ما خلقه من أنغام؟

لا إجابة الآن.. وربما نتلمس الإجابة الساعة الواحدة عندما
نتطلق موسيقاه.. لتغمرنا جميعا ولو بلمحة من ملامح الخلود.
الجميع في الحديقة.. تسابق البعض إلى المقاعد المتناثرة تحت
الأشجار، وبقي الكثيرون في الممرات المحيطة بالبيت.. ثم..
ثم.. بدأت موسيقى شوبان.

الأنغام تنبعث من كل مكان.. من بين فروع الأشجار.. بل
من قممها العالية، من منابت الزهور.. من مياه الجدول الصغير
الذى تتلون قطراته بالخضرة وتهتز في صوفية مع انبعاث اللحن.
لحظات يصغر فيها العالم كله ويصغر.. وتتلاشى الجنسيات..
ولا يبقى غير إنسان.. وفرع أخضر ونغم يتأوج إلى السماء.
كانه بالداخل الآن شوبان.. كأنه يعزف لى وحدى.. كأنه
يحكى لى حكاية طال يه الشوق ليحكيها لى.

الدقائق تمر سريعا دون أن أشعر بها.. أحس كأني خلعت
حذاي وارتكزت على ركبتى في معبد بلا جدران.
وتنتهى ألحان شوبان.. وأفيق ولكن لا أشعر برغبة في أن أترك
هذا المكان.. وكيف أتركه.. كيف؟

كانت نبرات «بوريس» قد فقدت كثيرا من جراتها ولعله حاول
أن يقول شيئا منغما:

- تعالوا لنشرب من البئر التى كان يشرب منها شوبان..
وانطلقنا جميعا ناحية البئر، تعاوناً على إنزال الدلو إلى الأعماق

ليعود إلينا بمياه لها مذاق الشهد.

سرنا نحن الأربعة وسط الحديقة دون أن نتجه ناحية السيارة التي
ستعود بنا إلى وارسو.. إعترض بوريس:

- لا .. ليس الآن.. ليس قبل أن نتجول في الحقول المحيطة
بالبيت.. لا بد أن نعيش في كل شبر في «جلازوفافولا»..
ما رأيكم؟

ولم يعترض أحد.. سار موكبنا الصغير وسط أعواد القمح..
نتبادل النظرات ولا نتكلم.. نحلم ونحن نسير على الأقدام..
ولعل كل واحد منا كان يغلبه الخيال بأن يظهر فجأة.. قادماً
من بعيد بعوده النحيل وشعره المتناوج، وعلى شفثيه الابتسامة الغامضة
والنظرة العميقة.. الحزينة.

ولكننا لم نر شويان..

دعانا إلى بيته.. ورحبت بنا موسيقاه..

وما أروع ما رحبت بنا موسيقاه!

الرقص في مضجع هتلر!

الشارع، والقصة.. الإثنان وحدهما.. خير ما يعطيك ملامح
شعب!

ومن شارع لشارع كنت لا أبحث عن قصة اكتبها أنا، ولكن
كنت أبحث عن قصة كتبها من عاش عمره في هذه الشوارع!
اللافتات تشير إلى الكبار، تسرد لك أسماء، تفرقك في طوفان
الشهرة وحدها، ولكنها في النهاية تبقيك بعيداً عن الأزقة، عن
النبض الحقيقي عن الوقفة العارية تحت شعاع الشمس.. عن الليل
الذي زحف ليزغ هذا النهار، عن اليوم بالتاريخ الميلادي أو بأى
تاريخ!

لا أريد لافتات. وإنما أريد أزقة.

المشاهير في الكتب، فقولوا لي أين الشباب؟! متعصب؟.. ربما.. وإنما أريد أن ألتق - كزقاق - بزقاق. وفي هذا اللقاء وحده ستكتمل الصورة التي لم أشهد منها إلا الإطار! قالوا، في فهم: إنهم مثلك يقولون الكلام نفسه، وما نحن نبعد عنك اللافعات ونزيع الاطار.. تفضل.. إلتق بهم.. إقرأ قصصهم.. فهم مثلك ولدوا مع صفارة إنذار. إنكشوا تحت أزيز طائرة ودوى قنبلة، وعندما أمسكوا القلم تحول في أيديهم إلى بندقية! اندريتش بريخت. في الرابعة والثلاثين. كتب كثيراً ولكن أحدا لم يلتفت إليه.. وفكر قليلاً ووجد أن الحل هو أن يعمل بالصحافة! وانبهر الجميع بالزقاق عندما نشر قصة «الرقص في مضجع هتلر» وأقاموا في الزقاق دار عرض. أقصد حولوا القصة القصيرة إلى فيلم سينمائي، ولكن القصة - كأدب - كانت أروع!

.. قرب حدود بولندا مع ألمانيا، توجد مقاطعة اسمها «مازورى» هذه المقاطعة مشهورة الآن بأنها مكان يقصده السليح، يرقصون ويستحمون في البحيرة الصناعية، ومن بين هؤلاء السليح رجل وقور ولكنه مرح.. لا مانع عنده أن يرقص، وأن يتبادل الانخاب، لذلك فقد ظل منذ مقدمه من ألمانيا موضع إعجاب وهمس فتاتين بولنديتين لا تتعديان الثامنة عشرة:

ياه.. لقامته المديدة.

ياه.. للشعيرات البيضاء في فؤديه..

سأطير من السعادة لو دعاني إلى الرقص !
 أما هو، فقد شحب وجهه وزاغت عيناه عندما جال بها . في
 الحياء المكان : . وتذكر !
 لقد كان هنا منذ عشرين عامًا، كان أحد الضباط المرافقين للزعيم
 ذلك الوقت « هتلر » ! .
 وفي هذا المكان نفسه أقاموا لهتلر ورفاقه بيتًا جميلًا يمضون فيه
 الأوقات السعيدة، ويتلقون منه الأوامر بإبادة وارسو وقتل المثات من
 البولنديين :

هنا كان ينام هتلر، وهنا يرقص الجميع الآن !
 وهاتان الفتاتان اللتان ترمقانه بعيون الإعجاب تحفى عنها
 حقيقته . . قد يكون هو الذى نفذ أمر الزعيم بقتل أم إحداهما . .
 ولكنها لا تدريان . . لا تدريان !
 الوقت يمر، والفتاتان تتهاوسان . . لماذا لا يدعوا واحدة متسا
 للرقص معه ؟ لماذا خبت ابتسامته مرة وحدة ؟
 والرجل ينظر إليهما بعيون مشربة بالأسى . . ولا يتكلم . .
 ولا يغادر مكانه ليرقص !

وقصة أخرى « لآندريتش بريخت » «عنوانها «يوم إجازة» . . وفيها
 أيضًا يلتقى جيلان . . الجيل الذى يتذكر كل شيء . . والجيل الذى
 نسى، أو لا يعرف شيئًا !
 جيل الكبار الذى يعرف أين كانت معسكرات الأسرى . وأين

كانت أفران الإبادة. فراها في كل مكان يذهب إليه.. لأنها كانت في كل مكان!

والجيل الجديد.. الصغار.. عصافير مزقزقة عيونها على الحاضر وعلى الغد.. ماذا يفعل الكبار؟.. هل يتركونهم في لهوهم البريء دون أن يشدوهم إلى أوتاد الماضي؟.. سؤال محير.. ولكنه لا يظل بدون إجابة فأبناء اليوم قد ينحرفون في تيار الحياة الجديدة، ولكن من الذى قال إنهم بلا آباء؟.. من قال إنهم لا يتوقفون لالتقاط الانفاس، ومعها يلتقطون الذكرى، يتطعمون بمصل يقيمهم من جرثومة قد تحترق جسد حياتهم.. بنذير حرب!.. السلام.. نعم.. ولكن يجب أن يعرفوا من الذى دفع الثمن!

وفي الإجازة.. وعلى بعد خطوات من أقدام الصغار.. يمرح الكبار وفي أيديهم المصل، وعلى ألسنتهم كلمات للصغار. يجب أن تتذكروا.

امرحوا.. وارقصوا.. واضحكوا..

ولكن تذكروا.. تذكروا!!

* * *

مارك نوافكوفسكى، في الثلاثين أديب وصحفي هو الآخر.. ولكنه موضه هجوم كثير من النقاد.. لماذا؟.. لأنه إنسان غريب ترك كل التماذج التي تعارف الجميع على الكتابة عنها، ليكتب عن

نماذج يحبها في شغف يفوق حبه للفتيات ..
نماذج الرجال والنساء الذين لا يصلحون لأى شيء ..
البوهيميون .. ولكنهم ليسوا فنانيين !
الواحد منهم قد يعمل اليوم نجاراً، وغداً يعمل سائقاً في
مقهى .. وبعد غد يكون لصاً ! والواحدة منهن قد تكون اليوم
زوجة، وغداً عشيقاً، وبعد غد زعيمة عصابة !
نماذج موجودة في المجتمع ولكن على هامشه يتطور المجتمع ويتغير
أسلوبه السياسى ولكنهم يبقون كما هم .. ينتقلون من مكان إلى
مكان، يفعلون أى شيء أو لا يفعلون أى شيء .. قد تلاحقهم
اللعنات، ولكن حياتهم مليئة باللمحات الإنسانية. ويخصص الحب
والتضحية !

وقد نذر «نوفاكوفسكى» أدبه كله للكتابة على هذه النماذج ملقياً
وراء ظهره بلعنات النقاد .. مستقبلاً في زقاقه هؤلاء الذين يعيشون
الحياة بكل قطرة فيها.

قانونهم .. لا شأن لك بى .. ما دمت أنا لا شأن لى بك ..
ولكن اعذرى إذا أخذت ما فى جيبيك !

إدوارد استاخورا، فى الثانية والثلاثين، ولد فى فرنسا من أب
يعمل فى المناجم، وعندما عاد إلى وطنه الأصلى بولنده كان يحمل
بين جوانحه ملامح أدب جديد، غريب ..

أبطال كل قصصه القصيرة من هؤلاء الذين يعانون من الملل،

والوحدة.. هؤلاء الذين يكرهون الرتبة ودقات الساعة.

صغار متدققون بالحوية. يشعرون بأن الذى يقدر على يفوق بكثير ما هو ممكن لهم أن يفعلوه.. ينظر الواحد منهم إلى عقارب الساعة للحظة خاطفة، ثم يتقدم منها فى بساطة شديدة لينزع عقاربها، ثم يرفعها من مكانها ليلقيها على الأرض.. ويطأها بأقدامه.. وينطلق إلى حال سبيله!

مغامرون يحاربون الملل والوحدة بالمخاطر، الماضى عندهم هو ما كان منذ ساعة واحدة فقط.. والمستقبل هو اللحظة التالية! النقاد أيضاً ساخطون على «استاخورا» ويقولون إنه متأثر بجون شتاينيك.. ولكنه هو الآخر مصر على اتجاهه فى الكتابة، فالفن عنده وجهة نظر.. وهذه هى وجهة نظره!

وإذا كان النقاد يطالبونه بأن يختار نماذج أخرى، فهم بمطلبهم هذا يؤكدون وجود هذه النماذج.. الوحيدة.. المحبة للمغامرة.. الباحثة عن طريق - غير تقليدى - تلتقى فيه بالمجتمع.

يانوس كراسينسكى فى الثالثة والثلاثين بدأ بالكتابات السياسية وانتهى بالكتابة للراديو والتليفزيون، يقولون عنه إن قصصه بولندية دماً ولحمًا، وهو الشيء النادر الذى لو اقتص به أديب لخرج من نطاق المحلية إلى العالمية دون أن يعتمد ذلك!

غالبية قصصه يحولها بنفسه إلى تمثيلات تليفزيونية. وأشهر هذه القصص عناؤها: بالبولندية «كارت».. وقد اندهشت عندما عرفت أن معناها بالعربية قريب جدًا منها.. «الكارته»!

والاختلاف الوحيد أن العربة التي كان يقصدها كان يجرها رجال بدلاً من الجياد.. والرجال كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا أسرى عند النازي في الحرب العالمية الأخيرة!

الخط الرئيسي في القصة يجيب على السؤال:
ماذا يفعل الرجال عندما يعاملون كالحمير؟
أما التفاصيل فتعطينا نماذج مختلفة من الرجال تنسابوا بأوامر الجنود الألمان جر العربة وفي كل مرة تظهر شخصية الرجل الذي يجبر.

المستسلم الذي يجبرها لكى ينجو من المشاكل!
المنافق الذي يجبرها - كالرهبان - طامعًا في إعفائه من المرة التالية.. ولكن النتيجة تكون عكس ما يتوقع.. فالجنود الألمان يعجبون بطريقته الفذة في جر العربة، ويصرون على أن يتولى هو هذه المهمة أغلب الوقت!!

الضعيف - النفس والبنية - غير القادر على الاحتجاج، يجبر العربة بصعوبة، ويتلقى الضربات في صمت، وعندما يغالب نفسه ليسير والعربة محملة بالجنود وراءه.. يسقط أكثر من مرة.. حتى

ينتهى به الأمر إلى أن يلقوا به إلى جانب الطريق !
 الشجاع الذى يصرخ فى وجوه الجنود الألمان بأنه سيجر العربة
 لأن هذه هى أوامرهم .. ولكنه يلعنهم سراً وعلائية، ويقول دون
 خوف إنه لو التقى بحفرة فسيجر العربة إليها ليموت هو قبل أن يموت
 من فى العربة !!

* * *

ثم التقى بزقاق فيه إصلاحات ليتحول إلى شارع عليه لافتة
 كبيرة !

كاتب وشاعر لم يولد بعد الحرب ولكنه ولد قبلها بسنوات قليلة
 فانطبعت بكل أحداثها المروعة فى خبايا نفسه .. وروحه .

ستانسلاف جروشوفياك .. وأشعاره .. وقصصه ورواياته ترجمت
 إلى أكثر من لغة، والطابع المميز له هو الكتابة العلمية بمعنى
 استخدام مصطلحات الكيمياء وتطويعها لأحداث درامية نابغة من
 طبيعة العنصر الكيميائى الذى يتحدث مع عنصر آخر بسهولة .. أو
 يرفض الاتحاد !

وقد قرأت قصته «تريسموس» أكثر من مرة .. ولكنى لم
 أفهمها .. فحتى العنوان نفسه اسم مادة علمية، أو ظاهرة تحدث
 عندما يتحول الإنسان إلى جسد ميت .. وهو فى القصة - على قدر
 ما فهمت - يتناول بالتحليل ما يحدث لجسد أحد النازيين كان

مشهوراً في حياته بقسوته. وتلذذه بتعذيب الآخرين حتى الموت.

* * *

الشارع والقصة.. الإثنين وحدهما.. خير ما يعطيك ملامح
شعب.

معذرة.. لا أقصد الشارع.. وإنما الأزقة!

حياة خاصة.. بدون مذاهب!

برغبتي الحرة، وبارادق.. تعمدت أن أتوه في ذلك الصبح!
أسير كيفما اتفق، أركب أى أتوبيس، أنزل في أى محطة.. غير
مكترث بما قد يحدث لى أو بصعوبة أن أفهم مع أحد!
ولكن.. رغم إرادى الحرة هذه، وجلتني - ربما بالغريزة -
أسير في الاتجاه الذى يسير فيه زحام الناس.. أتتبع خطاهم، وأفعل
مثلما يفعلون، وأترك الشارع الذى لا ينعطفون إليه!
ولدهشتى، اكتشفت انهم جميعًا - وكان اليوم إجازة - يقصدون
مكانًا واحدًا كان هناك اتفاقًا للذهاب إليه!
ميدان واسع كبير رأيته من بعد وكأنه مغطى بـعروس الناس،
وأخذنى الحماس وقد ثار الفضول فى نفسى. ماذا يحدث هناك؟..

هل هو لاجتماع سياسى؟ .. أم أنه مجرد سوق كبير؟! .. ولماذا ترتفع أصواتهم بهذا الشكل؟! ..

اقتربت من الميدان ورأيت الآلاف يقفون في طوابير، يحتمون من الشمس تحت مظلات أعدت خصيصاً، وأنظار الجميع متجهة ناحية شرفة عالية، وعبثاً حاولت أن أسأل أحداً عن الحكاية، الكل مستغرق تماماً وغائب عن كل ما حوله.. ولم تمر لحظات طويلة حتى تعالى نشيد جماعى يردده الآلاف في وقت واحد.. ووصل حب الاستطلاع بى إلى درجة تفوق الجنون.. لا بد أن أعرف.. ظللت أدور بعينى في كل اتجاه أبحث عن شخص يبدو عليه أنه متفرج مثلى.. ووجدته فى النهاية.. كان يقف مستنداً على حائط ولا تتحرك شفاته مع النشيد.. سألته وبدلاً من أن يجيبنى سألنى : من أين؟ .. وعندما عرف.. قال ببساطة شديدة : إنه احتفال دينى مثل رمضان عندكم!

رمضان؟! .. واحتفال دينى يضم الآلاف.. هنا.. فى بولنده؟! .. كنت مستغرقاً فى علامات الاستفهام، عندما لكزنى الرجل لأركع بركبتي على الأرض مثلما يفعل الجميع، وركعت سريعاً دون أن أفهم لماذا؟! .. وعندما وقفت ثانية عباد الرجل يقول : إنه «كوريس كريسكى»، وهو من الأعياد الهامة عند الكاثوليك.. وقاطعته قائلاً : ولكننى كنت أظن..

وضحك قبل أن أتم كلامى ليقول : كنت تظن أن الاهتمام

بالمسائل الدينية قد تلاشى هنا!
قلت: ربما.. ولكن يبدو أن الناس هنا متدينون إلى أبعد
الحدود.

وضحك وهو يقول: هل تظن ذلك؟.. انظر جيدًا إلى الجموع
وأنت تعرف!

وقبل أن أدرك مغزى كلامه، تركني وانصرف، ووقفت وحدي
من جديد أنطلق إلى الجموع الحاشدة المترمة بالصلوات!

بدأت أتبين ملامح غالبية المتجمعين في الميدان الكبير الذى تطل
عليه الكنيسة.. إنهم جميعا من كبار السن، أو من الأطفال الذين
لا يتعدون العاشرة، وعبثًا حاولت أن أجد شابًا أو حتى فتاة.. لا
يوجد إلا العواجيز.. والأطفال.

وانسحبت من الميدان.. لأتوه بإرادق ثانية!



الناس هنا في الشوارع لا يسرون في خطوات عادية مثلما يفعل
الناس عندنا.. إنهم حتى لا يسرعون، وإنما يجرون..
الكل يجرى.. الفتاة لتلحق الأتوبيس، والسيدة لتعبر الشارع قبل
أن تتحول إشارة المرور.. جرى.. جرى.. لذلك نادرًا ما تجد
واحدة ممتلئة الجسم - فالكل رشيقات بالمبنى جيب وبالميكروجيب..
وإذا التقت واحدة بشخص تعرفه فإنها تتوقف لثانية واحدة تعطيه

فيها يدها ليطيع قبله عليها ثم تستدير مبتعدة قبل أن تتبادل معه جملة مفيدة !

سألت « وانداء » حمراء الشعر :

- لماذا تجرون هكذا ؟ كل شيء جرى في جرى .. لماذا ؟ !

- غريبة .. اننى لا ألاحظ ذلك !

وقلت وأنا أحاول أن ألحق بها :

- ولكنك تجرين الآن فعلا !

- كل الذى أعرفه أن هناك موعدًا لأبذل الحق به .. وعندما

انتهى من هذا الموعد أستطيع أن أفعل ما أريد ..

- أن تجلسى فى احد المقاهى مثلاً ؟ !

- لا .. هذا متروك ليوم الإجازة ..

- اذن ما هو الشيء الذى ستفعلينه ؟

- أتسوق .. أتناول غذائي .. ليس هناك وقت !

ليس هناك وقت فعلاً ، وجبات الطعام يتناولونها - غالباً - وهم

وقوف .. يدفعون ثمن ما يريدونه ، ويتسلمونه بأنفسهم .. ثم يأكلون

فوق بنوك عالية فى سرعة وعلى عجل ، وقد حاولت أن أفعل مثلهم ،

فأحسست اننى أؤدى واجباً وظيفياً - بالنسبة لجسمى - دون أن

أستمتع بالأكل أو أحس طعمه !

جلست وحدى ألتقط أنفاسى فوق مقعد بحديقة واسعة.. الحديقة ليست مزدحمة.. أم ومعها طفل.. شاب وفتاة يتبادلان القبلات.. ثم فى مقعدين متجاورين تجلس فتاة وحيدة وفى استرخاء كامل جعل المبنى جيب ينحسر أكثر مما يجب.. وعلى المقعد الآخر يجلس شاب يقرأ جريدة.. توقعت أن يتلصص الشاب على الفتاة وعلى ساقها.. ولكنه خيب ظنى.. ظل منهمكا فى القراءة دون أن يعيرها أى التفات.. وبعد طول تأملى لهما اتضح أننى الوحيد الذى أتلصص على الفتاة، بل - بصراحة - لا أريد بنظرى عنها!

وقبل أن أجمع شجاعتي لأقوم وأتحدث معها وأتعرف عليها رأيتها تقوم متلهلة الوجه لتستقبل شاباً قادمًا من بعيد.. مدت له يدها فطبع عليها قبلة.. ومد يده أحاط بها وسطها وأحاطت هى وبسطه باليد الأخرى.. وغادرا الحديقة!

سألت «واندا» حمراء الشعر ورموش العينين:

- هل تجدون وقتًا للحب؟!

وردت على الفور:

- كل وقتنا للحب!

- وبالطريقة نفسها.. الجرى؟!

- كل شيء له وقته.. وكل شيء للحب!

- لم تفهمى سؤالى!

- بل أنت الذى لم تفهم إجابتي.. وإذا كنت تقصد الحب فى

حجرة مغلقة فالعمل لا يستغرق النهار كله!

- الحب عندى ليس فى حجرة مغلقة.. أو فى الطريق..
ولكنى أقصد أنكم عمليون أكثر إنكم تفعلون كل شىء وكأنكم فى
سباق!

- ولم لا؟! نحن فى سباق فعلا!

- ومتى ينتهى هذا السباق؟

- إنه كالحب.. لا ينتهى أبدا!!

شاهدت فيلما فرنسياً، وخرجت إلى الطريق حوالى العاشرة مساءً
وأنا متأكد تمامًا أننى سأعرف طريق إلى الفندق.. فدار العرض لم
تكن بعيدة فى ضوء النهار.. ولكن فور أن أصبحت فى الشارع
اختلط على كل شىء.. الأضواء كلها متشابهة.. وسيارات الأجرة لا
تقف إذا أشرت إليها، بل هناك محطات محددة تقف فيها.

وفى هذه المرة تهت فعلا.. ولكن بغير إرادى! ظللت أسير
وأسير.. دون أن أتبين مكان الفندق.. أو حتى محطة واحدة من
محطات سيارات الأجرة.. كنت جائعاً.. ولكن المحال كانت مغلقة
بعد العاشرة.. وغلبتنى تعاسة لا أول لها ولا آخر.. ماذا أفعل؟..
والى أين أذهب؟.. لا أحد يعاوننى على الإجابة.. وإذا سألت فلا
أحد يفهم اللغة التى أتحدث بها. لا فائدة غير اللغة البولندية..
حتى عندما نطق اسم الفندق على طريقته لم يردوا بغير كلمة
واحدة: پروستو..

وفهمت أنا معناها «دوغرى»..

إحساس التعاسة و «التوهان» لم يمنعنى من متابعة مواكب الشباب التى تسير اثنين.. اثنين.. والخطوات الآن ليست مثل الخطوات فى النهار.. انها بطيئة وحالة وتهدى على ايقاع القبلات.. طيب.. وأنا أعمل إيه؟!..

انقضى باب احد البارات الليلة، ولكنى لم أجد فيه غير «البيرة» فكانت وحدها عشائى فى تلك الليلة.. جلست لفترة أرقب حلبة الرقص، ثم قمت منصرفاً وقد نسيت تماماً المشكلة التى سببت تعاسى قبل أن أدخل البار.. وعند الباب الخارجى نظرت أمامى..

وكان «الفندق» عند الرصيف المقابل!

أخذت مفتاح حجرق وأسرعت إلى الدور الثانى لأنام كالقتيل! فى الصبح.. سألت «واندا» حمراء الشعر ورموش العينين:
- كيف أمضيت ليلة الأمس؟

وقالت فى سعادة!

- كنت أرقص.. طول الليل كنت أرقص:

- أما أنا.. فقد تبت!

ضحكت قائلة:

- تبت؟.. هنا فى وارسو؟!

- نعم! وقد تبينت فى النهاية أننى غير بعيد عن الفندق..

بجرد اختلاط أضواء!

- هل تعرف لماذا تهت .. لأنك لا تجرى مثلنا كما تقول .. في الحقيقة نحن لا نجرى .. وإنما نختار .. في العمل نختار ما يناسبنا ونلتزم بكل ما هو سائد في بلدنا .. وفي حياتنا الخاصة نعيش حياتنا كما نريد .. ليست هناك حياة خاصة اشتراكية وحياة خاصة رأسمالية .. هناك حياة خاصة واحدة .. وهى أن تعيشها بأقصى ما يمكن من استمتاع .. وأن تفعل فيها كل ما تريد!

قلت وأنا نادم على ليلة الأمس :

- معك حق .. ولكن .. هل تغضين إذا قلت لك إننى لاحظ أن غالبية الشباب هنا يتصرفون بدافع من التقليد لا عن اقتناع!

انفعلت «واندا» وقالت فى غضب :

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن السائد هنا قانون «فليفعل كل الأوربيين الشيء نفسه» .. والموضة الآن .. الرجال بشعور طويلة .. والفتيات بالميكروجيب .. والجيل الجديد متمرد على كل شيء .. و .. وقاطعتنى واندأ فى غير غضب :

- أوافقك .. ولكن ألا تفعلون أنتم فى بلادكم الشيء نفسه؟!

- ليس بصورة جماعية .. ولكننا لا نخضع للقانون الأورى .. هناك تقاليدنا التى نحافظ عليها ونحن نساير أى تطور .. قطبت حاجبها وقالت فى غير اقتناع .

- وهل لاحظت أننا هنا بغير تقاليد؟!
- لا أقصد ذلك.. ولكنه مجرد إحساس.. هناك بعض أشياء
- أشعر أنكم تفعلونها بدافع التقليد فقط.. لا عن اقتناع حقيق!
- حاولت أن تبسم وهي تقول:
- لن أستطيع مناقشة إحساسك!
- فليكن.. ولكني أريد أن اخضع هذه الليلة فقط للقانون
- الأوري!

- ضحكت «واندا» طويلاً قبل أن تقول:
- عن اقتناع؟.. أم بدافع التقليد؟!
- وتنهدت قائلاً:
- لا.. ولكن خوفاً من أن أتوه ثانية:

الذين يعرفون الحب!

* عندما يكون الكلام هدفاً في حد ذاته، يصبح خطره أشد من القنبلة الذرية.. الكلام لا بد أن يكون وسيلة.. وهو بين رجل وامرأة في حالة حب مجرد مقدمة.. وعندما يتلاشى الكلام، يكون قد تحقق الحب الحقيقي *

ببساطة شديدة حاول أن تجاوبني.. ماذا تريد من الدنيا بكل ما فيها؟.. الطعام الجيد؟.. الأوقات السعيدة الممتعة؟.. راحة البال؟.

كل هذا ممكن تحقيقه..

ولكن الأهم من هذا كله : أن تقول رأيك !
وأنت عندما تتكلم - بحرية - تتميز إنسانيتك على الفور، تتحدد

ملاعك، تطرح وراء كظهورك المشاكل الصغيرة التي قد تجعلك في مصاف أى كائن حى عادى، وتصبح كالفلاسفة كل ما يشغلك هو أن تجد الاجابة على الأسئلة التي تبدأ بـلماذا؟ وكيف؟!

لماذا أقول لك هذا الكلام؟ لأننى أود أن أحكى لك القصة الكاملة لنوادى الثقافة.. ونحن أحيانا نطلق عليها هنا فى بولندة اسم: نوادى المناقشة.. وعددها كثير.. كثير جدا. فى كل قرية.. فى كل حى.. فى كل مصنع.. وربما فى كل بيت:

حال هذه النوادى قبل الحرب الأخيرة يختلف عن حالها الآن.. البداية كانت محدودة فى المدن الصغيرة وفى القرى.. مجرد نواد صغيرة للشباب يشرف عليها المعلمون.. ويجد فيها الشباب الفرصة لقمضية أوقات الفراغ. أحيانا كانوا يكونون فرقاً للتمثيل.. وأحيانا يكتفون بقراءة الكتب.. وفى أغلب الأحيان كانوا يقتلون الوقت بالكلام.. كلام عن زوجة فلان.. وكلام عن ابنة علان.. وبالطبع لم تكن الحكومة فى ذلك الوقت مهتمة بهذه النوادى أو بما يجرى فيها.. ولكن عندما بدأ بعض المدرسين التقدميين يغيرون مجرى الحديث فى النوادى. ويتكلمون عن أشياء مثل الظلم والعدل.. وأشياء مثل المستورى السيئ الذى يعيش فيه الفلاحون.. بدأت الحكومة تهتم.. ولكن بإبعاد هؤلاء المدرسين!

أنت تبتسم.. لا.. انتظر.. القصة مازالت فى بدايتها.. وأنت لم تتعرف على بعد..

اسمى «رادومسكى جرسيجوف»، ووظيفتى رئيس ادارة النوادى الثقافية.. وعضو فى حزب اتحاد الفلاحين.. وكنت يومًا من الأيام واحدًا من هؤلاء الذين اهتمت بهم الحكومة قبل الحرب.

كنت - كفلاح - اختزن فى صدرى الكثير.. ولم يكن مجرد الكلام هو الذى أريده.. الكلام عندما يكون هدفًا يصبح خطره أشد من القنبلة الذرية.. والكلام لا بد أن يكون وسيلة.. وهو بين رجل وامرأة فى حالة حب مجرد مقدمة، وعندما يتلاشى يكون قد تحقق الحب الحقيقى.. طبعًا أنت تفهم ما أقصد.. ونحن كنا نريد بالكلام أشياء كثيرة.. ولكن الحرب جاءت فغيرت مجرى كل شئ..

كتمت ألمانيا النازية على أنفاسنا بين يوم وليلة، تاريخنا ملئ بتكرار موقف المانيا هذا منا.. قد يكون ذلك بسبب حدودنا المشتركة، أو لأن بولندا تغلبها الخضرة.. أسباب كثيرة والمهم ألا نخرج من موضعنا..

بالمناسبة.. ماذا تفضل.. الشاى أم القهوة السوداء؟

بعد القهوة.. معذرة.. أقصد بعد الحرب.. تغير الحال بالنسبة لنوادى المناقشة.. بعد التحرير أصبحنا دولة اشتراكية، وهنا كان يجب أن يزداد الاهتمام بالنوادى الثقافية، فالحكومة لم تعد شيئًا آخر غير الشعب، وسيلة القهر هى وسيلة الحكومات التى تخاف من الشعب، أما عندما تمد الحكومة يدها للإنسان الذى اختارها للحكم.. فإنه يفعل من أجلها. من أجل نفسه.. الكثير..

الفئة التي تحبك بصدق تستعد لأن تفعل أى شيء من أجلك.. تضحي بحياتها راضية، أما إذا اختطفك أنت فتاة وقدمت لها بيتاً من ذهب.. فإنها ستقتلك في أول فرصة مناسبة.

والاشتراكية تعنى الحب.. علاقة غرامية عنيفة تربط الإنسان بكل ما حوله.. طاقة الحقد التي يمكن أن يضيعها الإنسان في غضبه على حكم يقهره.. تتحول إلى طاقة خلاقة بغير حدود.

تسألني هل انطلقت نوادي الثقافة إلى وضعها الأمثل بعد الحرب؟.. وأجيبك أن هذا لم يحدث مرة واحدة..

كانت الحكومة مشغولة بإعادة بناء كل ما دمره النازي. وإذا عرفت أن النازي دمر كل شيء في بولندا.. فهذا معناه أن الحكومة كانت مشغولة جداً.. وإذا تكلمنا بصراحة نقول إن بعض النوادي تسرب إليها هؤلاء الذين لا يعرفون الحب.. وجدوها فرصة لإملاء اتجاهاتهم المعادية للاشتراكية.. كتبوا مسرحيات تضع السم في الدسم.. تصيدوا الشباب ليشحنوا رأسه بكلمات جوفاء عن الثراء، وعن أسطورة العالم الحر.

واستطاع هؤلاء الذين لا يعرفون الحب أن يصبحوا أقوياء.. أقوياء لدرجة أنهم استطاعوا إقصاء «جومولكا» عن الحكم كان ذلك عام ١٩٤٨ وارتكزوا على أسباب كالكلمات المعسولة.. وقال «جومولكا» قبل أن يذهب بعيداً «إن الشعب سيكتشف بنفسه من هم أعداؤه...» وفعلاً.. اكتشف الشعب أعداءه بعد فترة قصيرة..

تطلع الفلاحون والبسطاء إلى نوادى المناقشة فوجدوها سجوناً من ذهب.. كل شيء بالأمر.. وأنت تستطيع إذا كنت في مركز القوة أن تأمر شخصاً بأن يجر عربة.. أو أن يحفر بئراً.. ولسكنك لا تستطيع أن تأمر بأن يستمتع بمسرحية.. أو أن يستفيد من كتاب.. لأنه هنا سيستخدم سلاحاً أقوى من القوة.. الرفض!

وسلاح الرفض استطاع الفلاحون والبسطاء أن يتغلبوا به على خطر كان سيقضى على كل أمل مشرق في حياتهم..

ماذا كان يريد هؤلاء الذين لا يعرفون الحب؟.. كانوا يريدون الارتباط بالنظام الغربى.. بتبعية الإنسان لرأس المال.. وشيء آخر أكثر خطورة.. الحركة الصهيونية التى اعتقدت أن دورها هذه المرة لن يتعدى دور البريمادونا فى مسرحية يفضلها الناس، ولذلك يجب أن يصفقوا لها.. وليس على البريمادونا إلا أن تضع على وجهها المكياج المناسب.. الاشتراكية.. يبق على وجهها فترة عرض المسرحية.. فقط.. ثم سرعان ما تزيله بعد انتهاء العرض.. وقد اكتشف الناس هذه اللعبة بسهولة..

فرفضوا المسرحية..

ولعنوا البريمادونا..

وامتلأت صدورهم - من جديد - بالحقد؟ هل تكلمت كثيراً؟.. معذرة.. العدل أن أعطيك الفرصة أنت لتتكلم.. أنت سعيد بما أقول؟.. فليكن.. أتكلم أنا!

مع عودة جومولكا عام ١٩٥٦ عادت الحياة الطبيعية إلى النوادي الثقافية.. أدرك الجميع دورها الكبير في الحياة، هي ليست وسيلة للتسلية أو تمضية الوقت، وهي أيضا ليست ميداناً لتصارع الاتجاهات وخاصة المضادة، وإنما هي كالأوردة والشرابين بالنسبة للقلب.. ولقد فات وقت طويل قبل أن يتأكد الناس من الدور الحقيقي لهذه النوادي بعد الفترة التي قوبلوا فيها بالخداع؛ والمكياج؛ والكلمات المعسولة الكاذبة!

في البداية قال البسطاء: هذه دعاية وليست ثقافة.. ثم قالوا: لا تفرضوا علينا شيئاً.. أتركونا نطلب ما نريد.. فهذه نواد وليست قاعات درس!

مشكلة.. ولكن هذه هي طبيعة الإنسان.. وأمام هذه الطبيعة لابد أن نفكر، ولابد أن نخضع لمشيئتها.. ولابد أيضا أن نزيل من طريق الحب كل ما شابه في الماضي القريب من وسائل رآها الناس غير مشروعة!

الفتاة التي تحبك بصدق ورأئك بعينها وأنت تقبل فتاة أخرى.. ماذا تتوقع منها.. لابد أن تغضب.. لن تكرهك ولكنها ستحتاج إلى وقت كبير لكي تصفو لك، وتعفو عنك، وتعود لتقرب منك! وبدأت حملة واسعة لخلق حيوية نوادي الثقافة، الغيت النوادي التي لم تكن غير جدران، ووضعت أسس جديدة يكون القادة فيها بالانتخاب.. وأعنى بالقادة من يستطيعون أن يجعلوا من الكلمات

الروح التى تبني فنًا.. وهذه مهمة صعبة.. فهم مهددون فى كل لحظة بأن يتهموا بأنهم مجرد «بورجاندست».. أو انهم يهتمون بأنهم موظفون.. وهنا قد ينفض الناس عنهم، ويفقدون الثقة بهم!

وفى كل سنة.. يدعى كل القادة إلى مؤتمر كبير بوزارة الثقافة فى «وارسو».. وفى هذا المؤتمر تتلاقى جميع الأفكار وتطرح كل المشاكل.. وتوضح أيضا خطة العمل بالنسبة للسنة التالية!

شعار هذه المؤتمرات:

«الحياة ليست أوامر.. وإنما تنفيذ رغبات»!

وبهذه الصورة يحدث الاندماج الكامل.. فلا تعرف من الذى وضع الخطة.. النوادى نفسها.. أم الوزارة؟.. المهم أن يقول كل إنسان ما فى صدره، وأن يعبر كل فنان عن مشاعره، وأن يتطلع الجميع دون ما اختلاف إلى تأكيد كل القيم الجميلة فى الحياة.

هل تعرف أعظم فائدة لنوادى الثقافة.. أو كما نسميها نحن أحيانا نوادى المناقشة؟

تقول أكثر من فائدة.. الوعى.. مواكبة أى تقدم ثقافى وعلمى.. حب الفن.. وأقول لك إن الفائدة أكبر من هذا..

الفائدة أن تكسب مواطنًا مقتنعًا!

الاقتناع شىء ضرورى وحيوى.. وصعب!

والمواطن لكى يقتنع لابد أن يكون طرفًا فى حوار.. وأن يكون طارحًا لسؤال.. أو واضحًا لجواب.. وهذه التجربة أفادتنا كثيرًا هنا

في بولنـدة.. استطعنا فضح العناصر المعادية المخربة - وخاصة
الصهيونية - واستطعنا أن نجعل التنظيم السياسي كياناً واحداً له
شرايين وأوردة كثيرة.. ولكنه ينبض نبضاً واحداً!

هل تكلمت كثيراً؟.. معذرة.. ما رأيك في قلدح آخر من
القهوة السوداء؟

تسألني هل تتدخل النوادي في الحياة الخاصة للناس؟.. وفي
الحقيقة أنا لا أفهم بالضبط ماذا تعنى بسؤالك.. الحياة الخاصة لأي
إنسان تظل خاصة مادام هو لا يريد الحديث عنها.. أما إذا طلب
المعاونة فهو يخرج بها عندئذ من دائرة ضيقة إلى دائرة أوسع..
ويكون الحديث عنها بعد ذلك تلبية لرغبته.. ما إذا كنت تقصد
بسؤالك أى نوع من التدخل أو القهر.. فالتجربة قد علمتنا ألا
نفعل ذلك أبداً.. نحن ضد جدران الذهب.. لأن الجدران يمكن
أن تسجن إنساناً.. ولكنها لن تستطيع أبداً أن تسجن أفكاره.
والآن.. هل تستطيع أن تجاوبني.. ماذا تريد من الدنيا بكل
ما فيها؟

هيا.. اسمعني.. قل رأيك!

ممنوع اللمس !

عيناي تتشربان الخضرة، وذهنى سارح، والعربة الصغيرة تنطلق بنا نحو الريف المجاور لبوزنان وسؤال غريب أنتبه له فى دهشة : قل لنا شيئاً بلغتك.

حاولت أن أقول شيئاً بالعربية، ولكن - للغرابة - لم أستطع !
ما معنى الكلمات إذا كنتم لن تفهموها؟! .. مهما قلت لكم الآن فلن يكون بالنسبة لكم إلا مجرد صوت !

السؤال مازال فى العيون الزرقاء والجواب سؤال قلته على عجل بالعربية «حاقولكم إيه؟..» ردودا كلماتي فى إعجاب شديد ثم عادوا يقولون.. «ما معنى ذلك؟..» وأدركت ساعتها أننى واقع فى مشكلة، الترجمة الحقيقية لما قلته لن تعنى إلا أن يطلبوا من جديد سماع

كلمات أخرى، وقد يهون كل شيء بالنسبة لى إلا أن أكون هدفًا
لعيون تقتحم الحدود التى تقع فيها شخصيتى ولن أخرج من هذا
المأزق إلا بعد أن أقول أى شيء والسلام، وهربت عيون من العيون
الزرقاء ناحية الحقول وقلت بالعربية: «أهسى كلها خضرة واحدة..
لكن الناس موش زى بعض»!

وعندما سألتون عن معنى هذا.. ضحكتم.. ولم أجب!
عندما عرفت أننى سألتق بمعبود البولنديين وممثلهم الكوميدي
الأول «كويلا».. تساءلت بينى وبين نفسى.. هل سأضحك عندما
أراه؟ شارلى شابلن كانت له لغة عالمية، وهى ألا يقول شيئًا، لذلك
كانت أفلامه الأولى الصامتة هى أروع أفلامه.
كان «كويلا» يستعد للقطعة فى فيلم جديد، وقدمنى إليه مخرج
الفيلم وهو يردد أننى لايد وقد رأيت أحد أفلامه؛ وخرجت أن أقول
إن هذا لم يحدث، وابتسمت ملامح كويلا ليقول فى خفة دم:
أعتذر إذا كنت قد رأيتنى ولم تضحك.. ولم يكن أمامى إلا أن أنقذ
الموقف بأن أسأله:

ما هى هوايتك الأخرى بجانب التمثيل؟
غمز بعينه وقال على الفور: الخمر!
وعدت أسأله:

هل أنت كوميدي فى حياتك الخاصة؟
تغيرت ملامحه وقال وهو يتهد: أبدًا.. حزين.. حزين!

قلت: أهي قصة حب فاشلة؟
 خبطني على كفى وهو يقول: دك من الفتيات!
 وسألته: من تفضل من الكوميديين العالميين؟
 - كممثل لا أحد.. وإنما كمخرج «جان كوكتو»..
 مخرج الفيلم «جانوت» يشرح لى وهو يضحك عاليًا اللقطة التى
 يصورها «كوبىلا» الآن، وأنا أحاول أن أضحك مجاملة، وتصوير
 اللقطات لا يتوقف رغم هطول المطر!
 أوبرا «وارسو» مزدحمة على آخرها وأنا جالس فى أحد الصفوف
 أعيد قراءة قصة «القصر المسكون» التى سأشاهدها بعد لحظات
 وقالت لى «بربارا جينسكا» عندما بدأت تجبو الأنوار: «أظن أن لغة
 الأوبرا غير مهمة.. يكفى أن تفهم القصة.. وستكون الأصوات بعد
 ذلك مكملة للموسيقى»..
 هززت رأسى وأنا أقول كاذبًا: «طبعًا.. دون أى شك»!
 مشاهدة الأوبرا عندهم غذاء أسبوعى، يحرصون عليه بمختلف
 أعمارهم أكثر من حرصنا على انتظار اللحم يوم الخميس، وعندما
 بدأت الموسيقى أدركت على الفوز أننى لا بد أن أواجه نفسى بصراحة
 وحزم.. وأطوعها - رغم تمردها السابق - على تقبل وتذوق هذا
 الفن العظيم، ولكنى - رغمًا عني - كدت أنفجر ضاحكًا عندما
 بدأت ترتفع أصوات أبطال الأوبرا، إنهم - مهما كانت اللغة..
 يقولون الكلمات بطريقة لا يستسيغها إلا من تعود على مشاهدة الأوبرا

وسماعها.. وقد أدرك الصحفي الأسباني الذي يجلس إلى جوارى ذلك
فسألني هامساً:

أجبت: وهل تفهم أنت؟

مال ناحيتي ليقول: «أبداً.. ولكن لا بد أن تفوت الليلة على
خير».

في الاستراحة الأولى قالت «بربارا» إنه يجب علينا مشاهدة
متحف الأوبرا وفيه الملابس التي يرتديها الأبطال منذ مائتي سنة وفي
الاستراحة الثانية قالت «بربارا» إنه يجب علينا زيارة المكتبة التي بها
المخطوطات والنوت الموسيقية وفي نهاية السهرة شكرنا بربارا وانسحبنا
إلى الطريق مسرعين.. وقال لي الصحفي الأسباني ضاحكاً:

أدركني بمكان أحتسى فيه البيرة.. وأرقص..
وشددت على يده وأنا أقول: أدركني أنت..

رأيت هنا جميلات كثيرات ملكات جمال إن أردت التحديد،
ولكن «واندانتزى» جمالها يختلف.

هي ليست مجرد شقراء، وليست مجرد تقاطيع متناسقة، وليست
مجرد جسد رشيق وكأنه تمثال اغريقى. إنها - بلغة البولنديين - تحفة
حقيقية، تشعر وأنت تنظر إليها أن الخالق - جل شأنه - قد خص
هذه الفتاة بكل ما عنده من جمال.. ولكنها رغم فتنها الصارخة،

أو بتعبيرنا البلدى « الى تدوخ » كانت مرتبكة، وخائفة.. وتلمع على جبينها قطرات العرق!

كانت واندا ناتزى تستعد لتصوير أول لقطة سينمائية فى حياتها، وقد اختارها المخرج بعد أن شاهدها فى ديفيليه كانت فيه أروع مانىكان.

سألتها: ما رأيك فى التمثيل؟

ردت فى صوت خافت وكأنه نغمات جيتار صغير:

- لا أعرف.. ولكنى خائفة!

وقلت فى شجاعة أحسد عليها: لماذا وقد تعودت نظرات الناس أثناء عملك كمانيكان؟!

ابتسمت لتقول:

- ربما.. ولكن العيون هنا - وأشارت إلى الكاميرا -

زجاجية!

وشجاعة تفوق الحد عدت أقول: إن هذه العيون الزجاجية لو دبت فيها الحياة.. لما أعجبت إلا بك.

ضحكت الممثلة الجميلة الناشئة وهى تردد كلمات معناها أن أجامل وأنى أبالغ، وأنها إنسانة عادية جدًّا، ولا بد أن هناك - فى مصر مثلاً - من يفقنها فى الجمال..

وتدخل المخرج قائلاً: سأرسل لك صورتها فى القاهرة: إنى واثق أنها ستصبح نجمة عالمية..

فوجئت بها تسألني .. هل عرفت قصة الفيلم ؟!
ولحسن الحظ كان المخرج قد أعطاني فكرة عامة عنها، ولحسن
الحظ أيضاً أنها لم تنتظر اجابتي بل قالت على الفور:
- المفروض انني وديعة.. أبحث عن الزوج المناسب.. وبقيّة
القصة التي عرفتھا..

وسألتها: وهل الدور مناسب لك؟
ابتسمت قائلة:
- إنه أول دور لي.. ولا أعرف.. هل ترائي وديعة؟
تدخل المخرج ثانية: بدون شك ياعزيزي.. بدون شك..
استعدي الآن فسنبدأ التصوير.
- يجب أن تشاهد الفيلم وتقول لي رأيك!
وقلت في حماس حقيقي: لا بد أن أراه.
وقلت لنفسى وأنا أتابعها بعينى: «لأنى لا بد أن أراك أنت!»

لكل شيء قديم متحف، الآلات الموسيقية لها متحف، الأثاث له
متحف، آلات الصيد لها متحف.. وفي أحد قصور نبلاء بولنـ
دة القدامى رأيت الصالة التي كان يستقبل فيها أصدقاءه بعد عودتهم من
رحلات الصيد..

الصالة ليس بها كراسي، ولكن بها «كنبة» دائرية بحيث أن

الجالسين عليها لا يشاهد أحدهم الآخر.. وسألت لماذا؟ وقالوا
صاحكين: لأن التبليل كان يعرف أنهم جميعا سيكذبون ولذلك فقد
أعطى كل منهم الفرصة ليروا أكاذيبه فى الصيد دون أن يتجمل من
عيون من كانوا فى رفقته ويعرفوا الحقيقة كاملة!

فى متحف الآلات الموسيقية القديمة سألت السيدة العجوز التى
تشرف على الآلات التى تتأكل: هل هو مجرد عمل لك أم أنك
تحبين الموسيقى فعلا؟

أجابتنى وهى ترمق الآلات فى إعجاب:
- لقد اخترت هذا العمل بنفسى.. ولو نقلت إلى مكان آخر
سأحزن..

رغما عني امتدت يدي إلى أصابع بيانو يبدو كمنضدة طفل
صغير.. وفوجئت بصوت السيدة العجوز يعلو فى غضب:
- أرجوك.. لا تلمس شيئا!
وعبثا.. حاولت أن أعتذرا!

في المعرض!

تركنى. ووقف كالذهول أمام الآلة الكبيرة المعقدة المكتوب عليها
بالإنجليزية «تفعل كل شيء».

أخذت أرقبه - بدورى - فى ذهول.. وقد نسى وجودى تماما..
والمفروض أنه فى صحبتي ليدلني على الطريق.. وحاولت بشتى الطرق
أن ألفت انتباهه إلى أنني قد شبت فرجة فى هذا المكان ولكنه تكلم
كأنه يحلم:

«كم هى سهلة وجميلة.. الحياة الأمريكية!»

لم تدهشنى كلمات الصديق البولندى ابن «بوزنان» فى كل مرة
أزور فيها المعرض الكبير الذى يقام سنوياً فى بلده.. كنت أشاهد

نظرات الانبهار التى توشك أن تلتصق بكل ما يعرض فى القسم الأمريكى !

وجاهدت كثيرا حتى لا أنفلس، أو أن أقول كلمات مثل «إنها دعاية ..» أو «إن الشعب هناك لا يستمتع بهذا» فهما قلت .. ماذا سيفعل الكلام أمام آلاف الدولارات التى أنفقت فى ذكاء لكى تحبىء المعروضات الأمريكية إلى قلب مجتمع اشتراكى، وتكون دليلاً - كما يريدون - على أن الحياة فى مجتمعهم الرأسمالى أيسر .. وأسهل .. وأجمل !

إذا كانت بولنده هى صاحبة المعرض .. وقسمها فيه هو أكبر الأقسام، فأمريكا كانت حريصة على ألا يقل قسمها فى أى شىء عنه .. ولا مانع من أن تحبىء مع الآلات الأتوماتيكية والعقول الإلكترونية .. فتيات صارخات الجمال بالملايوه وبالمبنى جيب وبالإبتسامات التى لم أراها إلا بلهاء !

طوال جولتنا خارج العرض، وصديق البولندى حريص على أن يبدى لحظة وأخرى إعجابه بما يعرضه القسم الأمريكى، يقول ذلك ونحن فى زيارة الكتدرائية التى تضم التماثيل المصنوعة من الذهب الخالص، أو ونحن فى زيارة قلعة «كورنيك» التى تعرض لوحات من القرنين السادس والسابع عشر، أنا أسأله عما أراه فى هذه الأماكن ..

وهو يرد في اقتضاب ليعود ليتحدث عن الآلة التي تفعل كل شيء :
«تصور.. لم يعد مطلوباً من الإنسان أن يقوم بأى جهد..
يكفى أن يضغط على زرار ليحصل على ما يريده»..
وأقول له :

«بالطبع.. ولكن هل سيحصل على هذه الآلة كل إنسان في
أمريكا؟

ويرد وهو يرمقني في دهشة :

«ولم لا يحدث ذلك؟»

وأبتسم وأنا أرد عليه :

«أعتقد أنك أدرى مني بذلك.. المجتمع الرأسمالي تستمتع فيه
طبقة معينة بكل شيء، وبقية الشعب تعاني من كل شيء!«..
وتتغير نبراته وهو يقول :

«ربما.. ولكن لا يبدو أن مستوى المعيشة هناك يسمح بوجود
العدد الكبير الذي يعاني و..«
وأقاطعه :

«بل يسمح.. وهناك الملايين من المتعطلين والفقراء والذين
يؤدون أخط الأعمال من أجل لقمة العيش»..
وأتوقف.. لأقول ثانية في انفعال حقيقى :
«وهناك الزوج أيضاً!«
وتسبقني خطواته وهو يقول :

«أعرف.. ولكن هذا الذى شاهدته عظيم.. رائع»!

فى أحد أركان المعرض الكبير يوجد قسم «كوريا الديمقراطية»، وهو قسم صغير فى حجم القسم العربى، وبالنسبة للقسم الأمريكى كالنسبة بين كوخ.. وقصر كبير!

المعروضات الكورية ليست كثيرة، وليست معقدة، ولكن فى واجهة القسم توجد صورة كبيرة بحجم الحائط كله.. والصورة عبارة عن جندى بحار كورى يشهر السلاح فى ظهر اثنين من بحارة سفينة التجسس الأمريكية «بويلو» التى أسرتها البحرية الكورية.. وابتسمت فى إعجاب شديد وأنا أطلع إلى الصورة التى تقول مئات الأشياء. وترد على كل الأسئلة!

فى اليوم التالى فوجئت بالخبر:

«المستول عن القسم الأمريكى فى سوق «بوزنان» قدم مذكرة إلى إدارة المعرض يطلب فيها رفع الصورة التى تعرضها كوريا الديمقراطية، ويحتج على وجود مثل هذه الصورة التى تسىء إلى أمريكا»!

بقية الخبر:

«المستول عن القسم الكورى يؤكد أن الصورة لن ترفع.. وأنها فى مكان يعتبر أرضاً كورية»!

الآلاف يتوافدون على المعرض الكبير.. ويتجولون بين أقسامه

التي تغطي مساحة مدينة صغيرة، ولا أحد يدرى شيئاً عن الإحتجاج
الأمريكي..

كنا عند مفترق الطرق، وكنت قد حفظت كل مسالك المعرض،
ورأيت خطوات صديقي البولندي تتجه ناحية اليمين، فقلت على
الفور:

« إلى القسم الأمريكي ثانية؟! »

وابتسم وهو يرد على:

« لعلك لم تعلم »

سألته في فضول كبير:

« لم أعلم ماذا.. هل سيهدون الآلات إلى رواد المعرض؟! »

ضحك وهو يقول:

« لا.. ولكن القسم الأمريكي أغلق أبوابه! »

إرتفع صوت متسائلاً:

« ولماذا؟! »

رد في اقتضاب:

« بسبب الصورة التي تعرضها كوريا الديمقراطية! »

وانفجرت ضاحكاً وأنا أردد كلمة واحدة:

« برافو! »

وقال وهو يشاركني الضحك:

« يبدو أن آلاهم ليست وحدها التي تفعل كل شيء.. هناك

من يستطيع أن يفعل بهم كل شيء! »

* * *

غادرت «بوزنان» وذهنى لا يبارحه ما حدث هناك.. وفى «وارسو» جمعتى سيارة كبيرة مع عدد من السليح الأمريكان العجائز.. وفى احد الطرق الرئيسية توقفت السيارة لتقول المرشدة السياحية فى لهجة خطابية :

«والآن.. تشاهدون السفارة الأمريكية».

ونظرت خلال زجاج النافذة لأشاهد بناء ضخماً يعلو عن الأرض كثيراً وكأنه قلعة حديثة.. وكل شيء فى البناء معد فى إتقان شديد لا يهدف إلا لخطف الأبصار!

وقاومت طبيعتى المصرية حتى لا يرتفع صوق :

«ليتكم تدلوننا على مكان سفارة كوريا الديمقراطية!»

وطبيعتى المصرية انفجرت ضاحكاً.. دون أن يعرف أحد

السبب!

فتيات بالبكى.. والبالطو!!

في كل شارع، وفي كل ميدان، ستجد ما يشير إلى أن المدينة عمرها سبعمائة عام ولكن هذه الإشارة تضيع وسط المباني والمعالم الحديثة التي تؤكد أن عمرها لا يتعدى عشرين سنة!!

ذلك أن «وارسو» قديمة.. عتيقة.. كانت مسرحًا لجولات وحروب نبلاء القرون الوسطى.. ثم في غمضة عين تحولت إلى أرض خراب وأطلال.. لأن هتلر أراد ذلك!

وقد تركت مطار القاهرة وحر يونية يصل بالترموتر إلى درجة الأربعين، ولكنني عندما وصلت إلى مطار وارسو.. كان الجو عاصفًا والسماء تمطر.. وقد ظلت السماء تمطر طوال ليلة وصولي ثم كانت درجة الحرارة في الصباح أشد منها في القاهرة!

مطار « وارسو » يبدو وكأنه أحد المعسكرات السريعة البناء، ليس فيه فخامة، أو ضخامة.. أبنية من دور واحد كل شيء فيها يجري بدقة بالغة، وأكثر من شخص يساعدك على إنهاء الإجراءات الجمركية.. تماما كأنك تسير سيرك العادي لتعبر معسكرًا من أوله حتى آخره!

في الطريق من المطار إلى قلب المدينة تشعر على الفور أنهم هنا يعبدون الخضرة.. الأشجار على جانبي الطريق، البيوت محاطة بجدران، ثم حدائق عامة في كل مكان، لذلك ذهبت دهشتي التي تساءلت معها وأنا أطل على « وارسو؟ من نافذة الطائرة.. كل هذه الخضرة، هل هي مدينة زراعية؟!

القصر الذي تراه من كل مكان :

من أي مكان في وارسو ستشاهد هذا القصر.. الذي يرتفع إلى ٣٠ طبقة تعلو عن الأرض بأكثر من ٢٣٠ مترًا.. وسيقولون لك إنه قصر العلم والثقافة، وإنه هدية من شعب الاتحاد السوفيتي إلى الشعب البولندي.. وسيقولون لك أيضًا إنك ستجد قصرًا مثله في موسكو، ثم في كل عاصمة من عواصم دول أوروبا الاشتراكية.

لطالما خدعني هذا القصر وأنا أتجول في شوارع « وارسو » كنت أعتمد عليه في أن يكون دليلًا لي عندما أتوه في الشوارع المتشعبة. وفي كل مرة كان يبدو لي قريبًا جدًا.. وفي كل مرة كنت أتوه!!

أكبر الشوارع اسمه شارع «القدس».. وعلى الشوارع المتفرعة منه تقع أكبر الفنادق هنا.. «بريستول» و «يويسكى» أما الإدارة الرئيسية للجامعة فتقع على شارع القدس نفسه.. حيث كانت مساح أحداث الماضي، ومظاهرات الطلبة!

جوانب الطرق مزدحمة بالمحال التي تتفاوت مواعيد عملها وكلها محلات «تعاونية» تملكها الحكومة.. ولذلك فكل شيء عليه سعره المحدد «بالزلق» العملة البولندية المعروفة! وقد اندهشت كثيراً عندما وجدتهم يضعون «الطماطم» خلف الواجهات الزجاجية وكأنها فاكهة غالية نادرة.. وهى هنا كذلك فعلاً وسعرها يقرب من جنيه مصرى!

ومع موجة الحر التي غلبت «وارسو» في منتصف يونية - وهم يؤكدون أنها موجة غير عادية - كانت تنتشر في الطرقات العربات الصغيرة التي تبيع المرطبات والمياه المعدنية المثلجة.. وعادة ثمن الكوب زلوق واحد!!

شويان.. وكوبرنيكوس:

التمثيل في الميادين العامة كثيرة.. ولكن أشهرها هنا تمثال «شويان» الذى يتوسط حديقة كبيرة باسمه تمص متحفاً يحتفظ بكل شيء لمسته يده.. ثم تمثال الفيلسوف «كوبرنيكوس» البولندى الذى قلب وجه علم الفلك والفلسفة أيضاً.. فهو الذى قال إن الأرض

هى التى تدور حول الشمس، وإنما ليست كما كان يقول الأولون..
مركز العالم كله!

وبخلاف هذين التمثالين.. تمثال فتاة تشهر سيفاً وهم يعتبرونه
رمزاً لوارسو التى دافعت بكل شئ.. ضد جيوش النازى..
وقاومت حتى وهى أرض خراب!

بعد يومين أو ثلاثة فى «وارسو».. ستزول غربتك فى المدينة،
ستشعر كأنك فى مدينة عشت فيها سنوات طويلة.. الأتوبيسات
نفسها، المترو نفسه، وحتى «التوللى باس».. وإن كنت شرقياً
فستقف قليلاً أمام مشهد المرأة التى تقود المترو.. أو المرأة التى تقوم
بدور «عسكرى المرور» وفوق شعرها الأشقر «الكاب» الرسمى..
ويدها الرقيقتان تتحركان فى رشاقة بين مئآت السيارات التى تتزاحم
عند تقاطع الطريق!!

فى المدينة سوقان رئيسيتان.. سوق «وارسو» الحديثة، والأخرى
فى القسم القديم الذى لجأ من قنابل الحرب.. وبقي كل شئ فيه
كما كان عليه منذ القرنين السادس والسابع عشر، ومن ميدان
«زامكوفى» الذى يتوسطه تمثال الملك «سيجموند» الثالث - منذ عام
١٩٤٤ سيقودك أكثر من شارع إلى «وارسو» القديمة.. حيث أغرب
سوق فى أوروبا.. البيت الصغير قد يبدو عادياً فى نظرك ولكنك لو
تخطيت بابه فستجد محلاً إلى يمينك ومحلاً آخر إلى يسارك.. ثم
تصعد بضع درجات خشبية لتجد أكثر من محل فى الدور الثانى!

عبادة كل قديم:

وهم هنا يعبدون كل ما هو قديم.. يعبدونه لدرجة أنه إذا كان ضرورياً إعادة بناء أحد البيوت القديمة، فإنهم يحتفظون بأحد الجدران القديمة.. ليقيموا أمامها أو فوقها البناء الجديد!

في أكثر من شارع من الشوارع الرئيسية.. كنت أقف أمام عمارة كبيرة فخمة البناء، ثم أرى في واجهتها جزءاً قديماً متهدماً.. محاطاً بالجديد في حرص شديد، وكأنها الجدة العجوز المتهاكة تجلس وسط أحفادها وبينها وبينهم عشرات السنوات:

أغلب الأغنيات تتغنى بالقديم..

إيه.. ياوارسو.. ياغربة..

عمرك سبعمئة عام.. وأكثر..

النبلاء.. وفرسان العصور الوسطى..

ولكنك ذات ليلة مشثومة.. فقد كل شيء!

ونحن أحفادك.. سنبنيك من جديد..

وستبقين ياوارسو الجديدة.. قديمة!

وعندما كنت في وسط المدينة القديمة.. قالوا لي إنست مدعو لمشاهدة فيلم تسجيلي..

قاعة السينما تكاد تكون وسط «بدروم» بناء عتيق، ولكنها حديثة، ونظيفة، وعندما أسدلت الستائر السوداء.. لمعت الشاشة

الفيلم «ستبقى وارسو».. ويحكى الفيلم فى جراحة شديدة قصة «وارسو» وأهلها قبل عام ١٩٣٩.. ثم ما حدث فى تلك السنة.. عندما اجتاحت النازى وارسو.. هدموا كل شىء فيها.. البيوت تتساقط أمام عيني فوق من فيها.. الأطفال والعجائز يجرون فى الشوارع فى هلع.. وجنود النازى يسيرون فى خيلاء فوق الاشلاء والجثث.. دمار.. دمار.. وأسمع وسط ظلام القاعة صوت نشيج وبكاء الشبان الذين يشاهدون الفيلم.. وفئة تكاد تولول وهى تتابع ما تراه..

وسنة بعد سنة.. تمر الأحداث الرهيبة على «وارسو» حتى يجيء جيش التحرير.. تألف بين الجيش السوفيتى والجيش البولندى الذى تجمع ليحرر وارسو من جديد.. وما أن يأتى عام ١٩٤٤ حتى يبدأ صراع بطولى، ونضالى يفوق كل خيال للبناء من جديد! عشرات الرجال والنساء يرفعون الانقاض.. لا ليعيدوا بناء بيت أو بيتين.. وإنما لبناء مدينة بأكملها!

حتى الأوبرا :

فى أوبرا وارسو.. سيقولون لك فيما يشبه الاعتذار.. إنك ستلاحظ أن البناء حديث.. لكنها أوبرا قديمة جدًا.. ماذا نفعل وقد حطمها الألمان؟

المسارح كثيرة، والملاهى الليلية أكثر، وعندما كنت أراهم يمرحون

ويرقصون كنت أظن أن الزمن قد استطاع أن يغسل الجراح القديمة.. ولكنك تفاجأ بأن غالبية الأعمال الدرامية: عن الحرب! عن جرائم النازي ضد البولنديين.. عن حرب الإبادة التي أخذت من تعداد وارسو أكثر من ثلاثة أرباع مليون نفس بشرية!.. حتى الشبان الصغار.. إنهم يمرحون في حياتهم العادية، ويراقصون الفتيات، ويمارسون الحب في كل مكان حتى في الشوارع.. ولكنك إذا تجاذبت أطراف الحديث مع واحد منهم، فلن يقول غير: كل ما حولك جديد.. لأننا فقدنا مدينتنا القديمة العريقة! ولن نستطيع أن نرد عليهم بغير: أيتها الحرب.. اللعنة!

بعيداً.. عن البحر:

وارسو بعيدة جداً عن البحر.. لأنها تقع جنوب الساحل الشالي لبولندا حيث بحر «البليتيق».. لذلك فإن شهر «فستولا» الذي تقع عليه المدينة، يعتبر بمثابة المتنفس والمصيف لكل أهالي المدينة، وهم لا يعتمدون عليه فقط.. فهناك البحيرات الصغيرة.. الطبيعية والصناعية.. وفي أيام الحر والإجازات.. يهرعون إلى النهر وإلى البحيرات ليستحموا في مياهها وينصبوا الخيام وكأنهم على ساحل بحر لا نهاية له! ومع تقلبات الجو.. من الحر الشديد.. إلى المطر والعواصف..

فقد كنت أرى الفتيات بالكيني في شرفات المنازل.. وفي البحيرات، وعلى ضفاف «فستولا».. ثم في آخر النهار أراهن وقد تذررت كل واحدة منهن بالبالطو.. وكان اليوم الواحد قد تحول كما تتحول السنة عندنا.. إلى صيف وشتاء..

كل شيء.. للصغار:

وأنا في طريق لزيارة أحد المصانع البولندية.. كانوا يشيرون لي إلى المتاحف القديمة، وإلى القصور التي تحولت بدورها إلى متاحف.. أسماء القصور والمتاحف غريبة، وقد صعب على حفظ أو كتابة اسم كل منها.. حتى الكنائس - وهي أيضاً كثيرة - كنت لا ألتفت كثيراً إلى اسم كل منها.. أكثر من التفات إلى بنائها الذي يعود إلى القرون الوسطى.. والكنيسة التي تهدمت في الحرب يعيدون بناءها على الطراز نفسه!

وعندما أصل إلى مصنع «بولكا» للأدوية.. أشعر بطعم الحياة الحديثة لبولندا.. الحياة الاشتراكية الحقبة التي ينظر فيها إلى العامل كأنه «إنسان مقدس».. كأنه بيت قديم لم يهدم في الحرب!

بعد أن شاهدت الآلات.. ذهبت إلى مدرسة المصنع.. وهي مدرسة فريدة، أتمنى أن تطبق هنا في بلادنا.. المدرسة تكاد تكون صورة مصغرة من المجتمع بكل آلاته.. وفيها يتعلم من يريد من أبناء العمال وأبناء المنطقة المجاورة للمصنع.. كل شيء عن العمل

وطريقته .. وإلى جانب ذلك يتلقون التعليم النظرى العادى .. أما «بيت الحضانه» الملحق بالمصنع .. فهو يعطى المعنى الحقيقى للاشتراكيه عندما تتلخص فى ثلاث كلمات : الإنسان الحب، المستقبل !

عناية تفوق الحد بأطفال العاملات .. لدرجة أن لكل طفلين مربيه خاصة .. والأطفال تتراوح أعمارهم بين يوم واحد وأربع سنوات .. ولكم رقص قلبى عندما دخلت حجرة يلعب فيها صغار فى الثالثة واستقبلونى فور أن دخلت بكلمات : صلب الخير .. أهلاً وسهلاً !

فهمت كلماتهم .. وانفعلت كل عواطفى .. رغم أنهم قالوا ذلك بأصواتهم الملائكية .. بلغة لا أعرفها !

ليس كل شىء :

هل قلت كل شىء عن وارسو ؟ .. أبداً .. هذه هى أحاسيس عندما شاهدت هذه المدينة التى تتوسط أوربا .. وكانوا كلما أعطون النشرات السياحية التى تحدد لى معالم كل شىء .. أبعد هذه النشرات عن يدى .. لاكتفى بأن أتطلع لكل شىء بنفسى .. وأسأل .. لأرى الملامح على وجه الإنسان عندما يعطينى الإجابة !

وكما استقبلتنى وارسو .. ودعتنى ..

الأيام الأخيرة لى فيها كنت أشعر كأنى فى القاهرة .. الجو حار

خائق.. ولكن فور أن عريت الدائرة الجمركية وأخذت طريقى إلى
الطائرة.. أظلمت السماء وبدأت تمطر..
مطر فى البداية..
ومطر عند الرحيل..
ولكنى - يا وارسو - سأعود إليك!

برلين... شهور طويلة وكلمات قليلة

قنبلة في فم الغواصة!

دوى صوت الانفجارات، إنزعجنا كلنا، ولكنه لم ينزعج، كاد يستمر في محاضرتة عن «الحرب والسلام». عندما لاحظ أننا - مع صوت الانفجارات - قد توقفنا عن الكتابة، إبتسم وقال ببساطة: «إن الانفجارات تجرى في «أوستبانوف» وهي لتفجير البيوت القديمة لبناء بيوت جديدة مكانها!»

هكذا ببساطة، وهو جالس بينما يعرف ماذا يجري في مكان يبعد كيلومترات، وقبل أن يسأله أحدها بالبساطة نفسها: «كل إنسان لابد أن يعرف ماذا يجري في بلده!»

لم يستمر «دكتور فريكا» في محاضرتة، عاود الابتسامة ثم قال في اهتمام مفاجئ «عندى لكم خبر مشير.. لقد وجد عمال البناء في

برلين بالأمس قنبلة مدفونة منذ الحرب العالمية الثانية، القنبلة تزن « ٥٠٠ » كيلو جرام ومكتوب عليها صنعت في الولايات المتحدة الأمريكية. ١

« بعد اكتشاف القنبلة - وقد جاء ذلك متأخرًا ما يقرب من الثلاثين عامًا - ترك حوالى ألف شخص من أهالى برلين منازلهم، وظهر على الفور الرجل المختص بهذا العمل والذي تمكن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن من القضاء على خطورة ألف قنبلة لم تنفجر أيامها! »

في فترات الراحة ما بين المحاضرات كان يحلو لنا ان نلتقى بالغواصة - «دكتور فريكا» لتتجاذب معه أطراف الحديث بواسطة المترجم وكان في كل مرة يقول إنه لا يعرف من الانجليزية إلا كلمات قليلة جدًا لا تتعدى عدد أصابع اليدين. وصدقناه في ذلك الوقت.. لكن كانت دهشتنا كبيرة عندما لاحظ أثناء المحاضرات التالية أن هناك ضجة بين صفوفنا حول معنى إحدى الكلمات المترجمة. ورأينا الغواصة بدون أية مقدمات تندفع في الحديث بالانجليزية، ولمدة طويلة، وبطلاقة يحسده عليها الساكنون حول نهر «التايمز» وكان القليل الذى يعرفه من الانجليزية أحسن بكثير من الكثير الذى نعرفه نحن عنها! سألته - بدون معاونة المترجم هذه المرة - كيف أصبح أستاذًا في المدرسة العليا للحزب؟ إبتسم كعادته وقال في كلمات خاطفة: «سأقول كل شيء خلال المحاضرات» ١

وفعلًا... عندما كان حديثه عن الحالة التي كان عليها الشعب الألماني أيام الحرب وبسبب العدوانية الهتلرية وطابعها الإمبريالي، استفاض في وصف مظاهر الفقر والجوع التي عايشها أهالي برلين، وكيف أن الكثير منهم كان لا يجد حتى كسرة من الخبز الجاف. ثم يقول الغواصة: «ومثلي مثل كثيرين تركت عملي في المصنع، وتركزت دراساتي التي كنت منتظمًا بها في الوقت نفسه لأهاجر إلى الريف حتى أستطيع أن أحصل على طعام لي ولاسرق»!

وفي مرة أخرى كان يتحدث عن الاختلافات والتقارب بين طبقات المجتمع الاشتراكي الواحد رغم بذل كل الجهود لإزالة أي تناقض بينها، واندفع الغواصة من جديد ليقول: «ابنتي مثلاً تعمل الآن «حلاية» لبن في إحدى التعاونيات الزراعية وهي انتهت من دراستها الثانوية، وعلى ذلك فإن وضعها الطبقى لا يمكن أن يصفها بغير أنها «فلاحة»، لقد اختارت هذا العمل بمحض إرادتها وبدون تدخل مني... وفي نفس الوقت أنا أعمل بالتدريس فأنا من «الانتلجنسيا» ورغم ذلك فنحن نعيش تحت سقف بيت واحد أنا وهي وابنتي الذي يعمل في إحدى ورش صناعة الآلات ويعد نفسه ليصبح بعد ذلك مهندساً»!



كنا صباح السبت، وكان التاريخ ٥ يونية، ورأينا الغواصة يدخل

قاعة المحاضرات - على غير عادته - متجهها، ألقى علينا تحية الصبح على عجل، ثم دخل في الموضوع على الفور:
أربع سنوات على العدوان الامبريالى الاسرائيلى على البلدان العربية، ولذلك فأنا أطلب منكم جميعاً الوقوف دقيقة حداداً على شهداء حرب يونيو ١٩٦٧.

وقفنا صامتين والدموع تكاد تطفز من عيوننا. وبعد أن انتهت الدقيقة، استمر دكتور فريكا في كلامه - وبالتهجم نفسه - «نحن نعلم علم اليقين أنه لكى نقضى على آثار ذلك العدوان فإننا نحتاج إلى عمل ونضال متواصلين» في نهاية محاضرات كل يوم سبت تعودنا من الغواصة - أو من غيره من الأساتذة - أن يتمنى لنا عطلة نهاية أسبوع سعيدة، ولكن «فريكا» قال في حزم: «أنا لا أتمنى لكم اليوم نهاية أسبوع سعيدة، فأنا أعرف أنه يوم حزين بالنسبة لكم»!

لم ينته الأمر عند هذا الحد.. فقد كان البرنامج المعد يتضمن عدة أفلام عن الثورة الاشتراكية في روسيا، وأحداث سنة ١٩١٧ وكيف قاد «لينين» الشعب إلى النصر، وكنا قد رأينا أول هذه الأفلام «أكتوبر»، ولكن الغواصة أعلن أن الفيلم الذى سنراه لن يكون عن ثورة أكتوبر، ولكن عن صمود الشعب السوفيتى أمام الغزو الإمبريالى الألمانى فى الحرب العالمية الثانية وعنوانه «التحرير» مشاركة وجدانية لا تقف عند حدود العواطف، فالغواصة يبدو دائماً وكأنه أبعد الناس عن أن يكون عاطفياً، فالجالسون أمامه لابد أن يكونوا

في حالة انتباه مستمرة، لن يستطيع أن يخدعه أحدنا بأن يتظاهر والقلم في يده بأنه يكتب ما يقوله، فإن الغواصة سيتظاهر بأنه يفكر في النقطة التالية التي سيقولها، ثم يتسرب بخطواته ناحية هذا الذي سرح بفكره بعيداً - وإن كان القلم في يده - ويقف إلى جواره ليقول له دون أن يقول حقيقة «أنا هنا».

ومرة أخرى فرغ الخبر من قلم الزميل الذي يجلس إلى جوارى، فوضع القلم أمامه وتوقف عن الكتابة معتقداً أن الأمر سينتهي عند هذا الحد، ولكنه فور أن وضع القلم رأى «الغواصة» إلى جواره ويده ممدودة بقلمه الخاص، واليد الأخرى تشير له أن يستمر في الكتابة! تعودنا بعد ذلك والغواصة يغوص وراء كل المواضيع وكأنه موسوعة تضم كل المعارف، وتحفظ دون ما حاجة إلى مراجع بكل الأرقام والتواريخ، تعودنا أن نغوص معه دون أن ندرك أحياناً أنه يتسلل من قضية إلى قضية أخرى مختلفة تماماً، وعندما يحدث ذلك، فإنه على الفور يقول بصوته الهادئ:

«قد تعتقدون أن الرفيق فريكا قد «سرح» بكم في سرحة من سرحاته، ولكنني في الحقيقة أعطيكم الخلفية وراء هذه القضية.. كان ذلك اليوم يتحدث عن معدل الإنتاج الزراعي في الاتحاد السوفيتي، وكيف أن ذلك المعدل المنخفض بصورة مزعجة - وخاصة في القمح - في الفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ ثم قال بصورة خاطئة - وعلى غير عادته - إن هذا الانخفاض يرتبط طبعاً بالنقص

التي تسبب فيها «خروشوف» وأراد أحدنا أن يأخذ فكرة عن هذه النقائص، ولكن دكتور فريكا قال على الفور: إن الغواصة لن يتوقف هنا كثيرًا، هذه النقائص في نقط سريعة هي تحويل التعاونيات الزراعية إلى مزارع حكومية، وهي الإرشاد غير العلمي في الزراعة، وهي أيضًا عدم الاستقرار على الفنيين الذين يشرفون على الزراعة وتبديلهم باستمرار.. مرة يمين.. ومرة شمال»!



في المطعم.. هناك مكان مخصص للطلبة، ومكان آخر مخصص للأساتذة في مدرسة الحرب العليا، ولكن «الغواصة» جاء ظهر ذلك اليوم الى المكان المخصص للطلبة، وقف وسطنا في الطابور، وعندما جاء دوره رفضت الطاهية أن تقدم له أى طعام، هكذا النظام وهكذا الأوامر، تكلم معها بالألمانية ولم نفهم ماذا يقولان، ولكنه في النهاية انسحب من الطابور ثم قال لنا بالإنجليزية:

لقد حاولت إقناعها بأن اليوم أدرس موضوعًا جديدًا وعليه فأنا طالب.. ولكنها ردت في حزم قائلة: «اذهب لتناول غداك في المكان المخصص لك»!

بـاخ.. على قيد الحياة!

فى «ايزنلخ» القرية جدًا من «فايمار» قصدنا بيت «بـاخ» - معذرة فالسجع غير مقصود ولكنها اللغة الألمانية - وفى ذلك البيت رأيت ما لم أره فى حياتى من الآلات الموسيقية.. مجموعة هائلة تضم كل ما حاول الانسان أن يصدر به صوتًا موسيقيًا منذ بداية تواجده على الأرض وحتى مات ذلك الموسيقى الألمانى العظيم.

أحجام متفاوتة من «الكننجات» تبدأ من حجم عقلة الأصبع وتنتهى إلى حجم دولاب الملابس، والشئ نفسه بالنسبة «للبيانو» ولآلات النفخ بل وحتى لما نسميه نحن هنا «بالناى» أشكال متعددة، طويلة وقصيرة، بعضها أتى به بـاخ من أقصى الشرق، والبعض الآخر من أقصى الجنوب. زحام شديد من الآلات الموسيقية وكأنك فى

متحف كبير.. ولكن حدث ما جعلنى أستمّر وسط ذلك المتحف..

فقد رأيت رجلاً شد كل الانتباه عن معظم ما يحيط به من عجائب. ولم يكن المثير فيه أيضاً إن اسمه «دوهن».. ولكن المثير فيه أنه يجيد العزف على كل قطعة فى ذلك الزحام الهائل.. لا يترك قطعة دون أن يعزف عليها إما بيده.. أو بقمه.. أو برجله.. بل أننى فى لحظة من اللحظات ظننت أنه نظر لواحدة من تلك القطع الكثيرة مجرد نظرة بعينه.. فإنها على الفور ستطيعه وتصدر صوتاً موسيقياً!

همس أحد الأصدقاء الألمان فى أذن بأن الرجل يتقمص شخصية «بلخ» إلى حد كبير، وذلك ناتج من أنه يعمل مشرفاً على هذا البيت منذ سنوات طويلة ولذلك فإنه يعامل كل ما يحيط به معاملة خاصة تصل إلى حد العبادة.

تلك الحلقات الزجاجية - وهو يسميها هارمونكا الزجاج - كنت أعتقد انها لن تصدر فى النهاية إلا صوتاً يشابه ما كنا نفعله ونحن صغار عندما كنا «ننقر» بأصبعنا على الأكواب أو على زجاج النافذة ولكن ذلك الرجل «دوهن» يجلس أمام تلك الحلقات الزجاجية وكأنه يجلس أمام بيانو من آخر طراز، ثم يمر قطرات ماء على أصابعه. وبعدها.. إنطلقت فى الأرجاء أنغام موسيقية كأنها تهبط من السماء.. ولقد حاولت أن أنتهى من العزف، أن أفعل مثله، فصرخ فى وجهى

صريحة موسيقية تقول : إنه أولا ممنوع اللمس .. وإنه ثانيا - وهذا
هو الأهم - فإن سأتسبب في جرح أصابعي جرحاً عميقاً يمر بها
الواحد بعد الآخر!

مدينة للعباقرة فقط!

في قصر «جيتة»، وبالذات في ذلك المكان القريب من الحديقة الكبيرة والمفضي إلى الشارع.. أحسست وكأن «فاوست» يتجسد أمامي مرة واحدة، كأنه أمامي مثل تلك العربة السوداء - التي كانت فاخرة - والتي تتمدد ذراعها فوق الأرض وكأنها تستجديان جثة حصان مدفون تحت الأرض.
ولكم كانت قضيته فريدة..

هل من حقه - وهو الإنسان - أن يترك نفسه غاماً للشيطان، فلا تعرف روحه إلا الشر وحده؟.. وإذا فعل.. فهل ينجو من الخالق؟.. بل هل ينجو من الشيطان نفسه؟
أسئلة ثارت في ذهني مرة واحدة وأنا أطل بأقدامي الأرض نفسها

التي كان يسير عليها العبقري «جيت»، وعيناي تريان ما كان يراه. وإن تأخر الزمن بعد ميلاده ٢٢٢ سنة، وبعد موته ١٤٩ سنة. غير أن «جيت» ليس العبقري الوحيد الذي أنجبته هذه المدينة «فايمار» التي تقع جنوب غرب المانيا الديمقراطية.. فهناك غيره كثيرون، لكن أكثرهم معرفة لنا الموسيقار «فرانزليست» والشاعر الكبير «شيللر».. بل إنه على بعد أميال قليلة جدًا توجد مدينة صغيرة أخرى «إيزنخ» التي عرفت بداية قصة «مارتن لوثر» والتي كانت موطنًا للموسيقار العظيم «باخ»!

قبل أن ندرك المبنى أو القصر الذي كان يعيش فيه «جيت» كان علينا أن نترك السيارة لنسير على الأقدام، وقد أدركت على الفور أن «فايمار» وخاصة ذلك الميدان العتيق الذي كان أول ما يطلعه «جيت» صباح كل يوم له طابع خاص غريب وكأنه يكرر مسرحية، وحتى تستطيع ان تتخيل معنى المنظر لابد أن أقدم لك مفردات لأشياء قد لا يضمها الديكور ولكنها تستكمل ابعاده وصورته.. عربة سوداء فاخرة يجرها زوجان من الخيل، رصيف ضيق جدًا ويعلسو حوالى نصف متر عن أرضية الشارع المغطاة بمربعات من الجرانيت - موجود مثلها في شوارع الاسكندرية القديمة! - حديقة صغيرة تتوسط الميدان ومحاطة بسور حديدي في منتصفها تمثال ونافورة للمياه في الوقت نفسه.. فإذا تركت الميدان فإن الشوارع الضيقة التي تقودك بعد ذلك ليست كلها على مستوى واحد من الارتفاع، فبعضها

ينحدر بك وكأنك تنزل درجات بيت ثم يتلففك شارع آخر ليعلمو بك ثانية وكأنك تصعد درجات البيت نفسه، وأنت تستطيع أن تفهم من ذلك - كما فهمت أنا دون أن أسأل - أن المدينة جبلية أو مقامة فوق جبل، ولكنه مثل باقي جبال المانيا مزدهر بالخضرة، وقد قلت لنفسي على الفور إن هذه الخضرة، وهذا الهدوء الذي لا يعكر صفوه أى شيء إلا أصوات الطيور هما سر انجذاب هذه المدينة لأكثر من عبقري، وإن كان من الغريب ان يظهروا جميعاً في عصر واحد، بل في سنوات متقاربة وفي وقت ازدهرت فيه الرومانسية كما لم تزدهر من قبل او من بعد!

وكان من الغريب بالنسبة لى أيضاً أننى زرت بيت «جيته» وبيت «شيللر» في يوم واحد. والمسافة المكانية بينهما ليست بعيدة.. ولكن المسافة بين مظهر ما تركه كل منهما تختلف كل الاختلاف! فبينما الفخامة والعظمة تستقبلك مع كل خطوة تخطوها داخل المبنى أو القصر الذى كان يعيش فيه «جيته» تجدد البساطة المتناهية، بل بعض مظاهر الفقر في بيت «شيللر»، في البيت الأول كل سمات حياة الوزير الذى كان من ألمع الشخصيات في بلاط «فايمار»، وفي البيت الثانى كل سمات الرجل الذى شغل نفسه بقضايا بلده الاجتماعية واختار أن يكون استاذاً للفلسفة، ورغم ذلك فإن المكتبة التى تضم الكتب التى كان يقرأها كل منها تقلب الميزان لصالح «جيته» وكان المسألة - كما هى في كل عصر - هى مسألة إمكانات

مادية قبل أن تكون قضية شغف وحرص على الاطلاع !
 هذا كان انطباعى وأنا أزور بيت « شيللر » بعد بيت « جيته »
 ولكنى عندما قرأت الخطابات التى كان كل منها يرسلها إلى الآخر
 ظهر لى على الفور أن العلاقة بينها كانت تتخطى ما رأيته اختلافًا
 بينهما إلى مرحلة الزمالة الشعرية أو إلى ما يمكن أن نسميه
 « الانجذاب العبرى » .. وفى أحد خطباته قال شيللر :
 « من المثير للدهشة تلك الحقيقة التى تؤكد أن معرفتى بشاعر
 كبير مثل « جيته » هى فى الواقع التى أثرت حياى الفكرية ، بل
 ساعدتني فى أن أتطور شيئًا فشيئًا !
 وقال له « جيته » فى خطاب له :

« الحقيقة يا عزيزى شيللر » أنك أعدت إلى ثانية الإحساس
 بشبابى ، بل جعلتني أتوق لأن أتدقق بالشعر من جديد وهذا كل ما
 أتمناه فى حياى كلها !

ورأينا مخططًا لمسرحيته « اللصوص » - ظهرت أول طبعة لها فى
 فرانكفورت وليبزج عام ١٧٨١ - ولقد تولى الشاعر الكبير طبعتها على
 نفقته الخاصة لأن أغلب دور النشر رفضت بالطبع تقديم مثل هذه
 المسرحية الجريئة .. والشئ نفسه حدث عند تقديم المسرحية على
 خشبة المسرح عام ١٧٨٢ فقد عمد المخرج « والبرج » وزعم احتجاج
 « شيللر » إلى الإيهام بأن أحداثها جرت فى زمن بعيد من تاريخ ألمانيا
 - عصر الأمبراطور ماكسميليان فى بداية القرن السادس عشر - وحتى

رغم ذلك الإيهام فإن الأوراق تثبت ما حدث بين صفوف المتفرجين في ليلة العرض الأولى.. لقد كتب شاهد عيان يقول:

«لقد تحولت دار العرض إلى ما يشبه جمعاً للمجانين أو الذين أصابتهم ملامح الهياج فبرقت عيونهم، وراحت أقدامهم تدق على الأرض، بعنف فهؤلاء الذين يسرونهم على خشبة المسرح أمراء والسلام.. لصوص والسلام.. ولا يهم إذا كانوا من القرن السادس عشر.. لأنهم مازالوا يسرقون».



في اللحظات الأخيرة لنا في «فايمار» كان يحدث دائماً عند الرحيل، ابتسامات وتحيات وداع، ثم سمعت كلمات جاءت ببساطة متناهية وكأنها غير مقصودة ولكنها تجاوزت في جنبات رأسي بعنف:

«والآن تتركون هذه المدينة الصغيرة في ريف ألمانيا لتعودوا إلى العاصمة الكبيرة برلين».

«فايمار» مدينة صغيرة؟

هل هكذا تتواضع أكبر المدن؟

من يطيع الإسكافي؟!

بخطوات مترنحة، ويعيون زائغة، وبجوف عامر بالبيرة، صعد الرجل إلى الدور الأول من المبنى الحكومى القديم الذى تهدم نصفه . ويقى النصف الثانى خالياً.. ثم اختار حجرة تطل على الميدان الرئيسى فى المدينة الصغيرة، ويدون ملاحظات ارتفع صوته يخطب فى الناس . فى أول الأمر ضحك رجل وهو يقول :

«إنه هاينز الإسكافي ولا بد أنه مخمور كمادته»!

ورد عليه رجل آخر :

«ولكنه أعلن نفسه حاكماً للمدينة.. فلتتوقف لنستمع إلى ما

سيقوله».

وتوقف الرجلان، وأمام كلمات هاينز المدوية التى تعد الجميع

بتحقيق كل ما فى الدنيا من أحلام جميلة، تزايد الزحام أمام النافذة التى يطل منها. كان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد.

فالإسكافى لآبد سيفيق فى الصباح، وكل أهالى المدينة الصغيرة «كيونيك» يعرفون ذلك. ولكنهم عندما انصرفوا جميعًا كانوا قد اتفقوا على شىء بدأ بسؤال:

«لماذا لا نحقق أمل هاينز»؟.. وكان الاتفاق الذى لم يعترض عليه أحد.

لا يهم أنه كان مخمورًا، ولا يهم أنه فرض نفسه بدون مناسبة!

* * *

نكتة كان يروىها رجل جاء لزيارة مريض فى «كرانكن هاوس كيونيك» - أى مستشفى كيونيك وبعد أن انتهى من روايتها انصرف ليترك قريبة المريض الذى كانت أوامر الأطباء له ألا يتحرك من فراشه أربعة أيام كاملة - الأمر نفسه كان لزميل لنا مريض بالمستشفى نفسه - والذى حدث أن زميلنا المصرى مثل كل شىء إلا البقاء فى فراشه، غادر الحجرة.. وصار فى الممرات، ونزل إلى الحديقة ولكنه كان كلما يعود إلى الحجرة يجد ذلك المريض الألماني ملازمًا لفراشه، لا يغادره حتى لقضاء حاجة، فما دامت أوامر الأطباء تقضى بالبقاء فى الفراش ولدة أربعة أيام كاملة.. فسببق فى الفراش حتى يجىء اليوم الخامس!

سمة مميزة للشعب الألماني يتميز بها عن بقية شعوب العالم!
هذه السمة لا يمكن أن نحددها بأنها الطاعة العمياء، أو أنها
احترام ما يجمع عليه الناس. أو الصرامة في تنفيذ كل ما تقوله
القوانين. فربما تكون خليطاً من هذا كله.

فأدامت القوانين مثلاً تمنع تماماً التدخين في جميع وسائل
المواصلات العامة. فلا يمكن أن يشذ مواطن ألماني واحد عن
ذلك.. والإعلانات الوحيدة الموجودة في أغلب المواصلات فوق
الأرض وتحت الأرض هي ممنوع التدخين، وأحياناً تتغير الصيغة
لتصبح وفي تحذير صارم «لا تدخن»، وبالطبع فإن مخالفة هذه
الإعلانات - ولا أقول الأوامر - تأتي دائماً من الوافدين على ألمانيا
الديمقراطية، وقد حدث أن نسي احداً نفسه وهو في عربة القطار
وأشعل سيجارة، وعلى الفور تعلق به عيون كل الجالسين في
العربة. وعندما لم يفهم معنى هذه النظرات النارية، اقترب منه رجل
ليقول له بالإنجليزية:

«إذا كنت لا تفهم الألمانية فأمامك مكتوب لا تدخن».

واطفاً السيجارة وهرب في أول محطة!

بعد الشهر الأول في ألمانيا كنا قد تشرنا الكثير، وفي يوم عائداً
من السوق محملاً بلفائف كثيرة تذكرت أن معي خطاباً أود إرساله

إلى القاهرة، وفور دخولي مكتب البريد هالتي الطابور الطويل الواقف أمام الموظفة.. وبدون تفكير وضعت كل ما أحمله من لفائف على المنضدة المواجهة للباب وانصرفت لأعود بعد فترة من الوقت.. كنت مطمئناً تماماً أن أحداً لن يمس هذه اللفائف حتى ولو تركتها وعدت لأخذها في اليوم التالي.. وفعلاً تركت مكتب البريد ورحت أتجول في المنطقة المحيطة به.. وبعد ساعة كاملة عدت إلى المكتب ولكنني صدمت فور دخولي بعدم وجود كل اللفائف التي تركتها هناك، هل حدث المستحيل؟. هل امتدت يد شخص مجهول وأخذت اللفائف؟.. غير معقول!، ووقفت كاللذهول لا أعرف كيف أنصرف، أسرعرت ناحية الموظفة لأقول لها بالإشارة وبكل اللغات: إنني كنت أترك أشياء تخصني فوق المنضدة وأنها اختفت جميعاً.. ولكنها لم ترد على إشارتي حتى ولو بكلمة واحدة.. وتذكرت على الفور أنني قد تخطيطت دوري في الطابور. فعدت على مضض لأنتظر دوري ونظراتي زائغة في كل اتجاه تبحث عن اللفائف، وأخيراً جاء دوري فعدت سريعاً إلى الاشارات ولكنها قالت في صرامة ورقة:

« أين الخطاب الذي تريد إرساله؟ »

علت وجهي كل ملامح التساؤل وأنا أريد القول بلإن الخطاب ليس مشكلتي الآن، ولكنها أعادت ما قالته بالصرامة نفسها وبالرقة نفسها، فأعطيتها الخطاب، ثم أعطيتها ما طلبته من نقود، وقبل أن أستدير وقد غلبني اليأس سمعتها تقول وبالإنجليزية واضحة:

« هل هذه اللقائف تخصك ؟ »

ووضعت أمامى اللقائف الواحدة بعد الأخرى وأنا لا أكاد أصدق، وبالطبع تهلت أسارىرى بفرح غامر.. ولكنها قالت فى جدية خالصة :

« هذه اللقائف كانت تشغل المكان الذى يكتب عليه الناس خطاباتهم.. لا تفعل ذلك ثانيًا ! »

* * *

على مدى أسابيع طويلة كنت أتساءل : هل يمكن أن يعيش الناس بكل هذه الجدية. وبكل هذه الصرامة ؟

كنت أعرف - بعيدًا عن المصطلحات السياسية - أن الشعب الألمانى رغم كل خصائصه المتأصلة فيه، يحاول مع بنيان بلاده من جديد بعد الحرب العالمية الثانية أن يكتسب سمات أخرى جديدة تضاف إلى تقديسه للنظام والعمل، سمات تلغى سمة قديمة فى أذهان العالم تصور شموخه وتقاليده وأحيانًا.. عدوانيته !

ولذلك فإن الجميع يحرصون على تربية الأجيال الجديدة على التفتح الكامل على كل غريب، وحب كل أبناء شعوب الأرض، وأنت قد تجهد صعوبة فى كسب صداقة الرجل الألمانى، ولكنك لن تجهد أى صعوبة فى كسب صداقة طفل أو شاب فى مستقبل العمر، فهذا الطفل أو ذلك الشاب سيأدر إلى التعرف بك، وسيحرص على

أن يتجاذب معك أطراف الحديث وهذا ليس معناه أن الكبار لا يودون كسب صداقة أحد، ففي الحقيقة أنهم طوال أيام العمل في الأسبوع ينصرفون بكل طاقاتهم للعمل وحده يستيقظون من أجله من الصباح الباكر ويعودون آخر النهار وقد هدهم التعب.. ولكن.. عندما تحيء عطلة نهاية الأسبوع وهي يومان، السبت والأحد، يتحول كل الكبار إلى طبيعة أخرى تماثل طبيعة الأجيال الجديدة!

الحكاية - أو النكتة - تقول على لسان الناس.. لماذا لا نحقق أمل هاينز؟!

وقد حققوا أمله بالفعل.. قالوا مادامت هذه هي رغبته، وهذه هي رغبتنا أيضاً.. فلا بد علينا أن نطيعه.

وبقية الحكاية أن «هاينز» عندما أفاق في الصباح، عاد ليصبح إسكافياً من جديد!

فهرس

صفحة

| | |
|----|----------------------------------|
| ٥ | في البداية عبر الأفق |
| ١٤ | كلهم زوريا |
| ٢٤ | حوار من طرف واحد |
| ٣٤ | الجسد.. لغة عالمية |
| ٤٥ | كونشرتو القم الزرقاء |
| ٥٧ | الحلوة مرسيليا |
| ٦٤ | عائد من الأفق |
| ٧٥ | بالطائرة إلى غابات العصور الوسطى |
| ٧٥ | عندما عزف لي شوبان |
| ٨٦ | الرقص في مضجع هتلر |

صفحة

| | |
|-----|--|
| ٩٥ | حياة خاصة .. بدون مذاهب |
| ١٠٤ | الذين يعرفون الحب |
| ١١٢ | ممنوع "الممس" |
| ١١٩ | في المعرض |
| ١٢٥ | فتيات بالبكيني .. والبالطو |
| ١٣٥ | برلين .. شهويرة طويلة وكلمات قليلة |
| ١٣٥ | قبيلة في فم الغواصة |
| ١٤١ | بلخ .. على قيد الحياة |
| ١٤٤ | مدينة للعابرة فقط |
| ١٤٩ | من يطيع الإسكافي |

اقرأ في هذه المجموعة

| | |
|------------------------|----------------------------|
| د . طه حسين | صوت أبي العلاء |
| د . طه حسين | أحلام شهر زاد |
| عباس محمود العقاد | في بيتي |
| عباس محمود العقاد | الشيخ الرئيس ابن سينا |
| أحمد أمين | المهدى والمهدية |
| أحمد أمين | الصعلكة والفتوة في الإسلام |
| على الجارم | خاتمة المطاف |
| د . عبيد الخليم عباس | أبو نواس |
| يحيى حقي | دماء وطن |
| د . زكي مبارك | العشاق الثلاثة |
| د . يوسف مراد | سيكولوجية الجنس |
| د . أحمد فؤاد الأهواني | النسيان |
| د . أحمد فؤاد الأهواني | الحب والكراهية |
| محمد لبيب البوهي | الوجودية والإسلام |
| د . جمال الدين الرمادي | الأمن والسلام في الإسلام |
| طه عبد الباقي سرور | الغزالي |

| | |
|----------------------------|----------------------|
| أنور الجندى | الإمام المراغى |
| محمد سعيد العريان | بنت قسطنطين |
| د . سامى الدهان | شاعر الشعب |
| د . عبد الحميد إبراهيم | قصص الحب العربية |
| محمد عبد الغنى حسن | غرائب الرحلات |
| إبراهيم عبد القادر المازنى | عود على بدء |
| عباس خضر | غرام الأدباء |
| محمد فهمى عبد اللطيف | أبو زيد الهلالي |
| خليل شبيب | عبد الرحمن الجبرقى |
| عادل الغضبان | لبلى العفيفة |
| صوفى عيد الله | نساء محاربات |
| رجاء النقاش | أبو القاسم الشاذلى |
| محمد محمد فياض | جابر بن حيان |
| عباس محمود العقاد | الصديقة بنت الصديق |
| د . على حسنى الخربوطلى | الكعبة على مر العصور |
| على الجارم | غادة رشيد |
| د . عبد العزيز جادو | الأحلام والرؤى |
| د . أحمد فؤاد الأهوانى | النوم والأرق |
| محمد فريد أبو حديد | جحا فى جامبولاد |
| أحمد زكى صفوت | عمر بن عبد العزيز |
| عبد الستار فراج | نديم الخلفاء |

د . جميل جبر
مصطفى الشهابي
محمد محمد فياض
محمد عبده عزام
سيد قطب

طاغور
طرائف من التاريخ
تيمورلنك
شيخ التكية
المدينة المسحورة

| | |
|--------------------|----------------|
| ١٩٨٧ / ٥٢٨٨ | رقم الإيداع |
| ISBN ٩٧٧-٠٢-٢١٤٢-٢ | الترقيم الدولي |

١ / ٨٧ / ٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك
دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة
العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش
معهم .. كما عاش الآباء والأجداد ..
وتكوّن في مكتبتك موسوعة متفرقة في فروع
المعرفة المختلفة .

وإيماناً منا بأن القراءة هي أقصر
الطرق إلى الوعي والثقافة .. فقد يسّرنا لك
ذلك في إخراج جيد .. وسعر زهيد .

١٠/٧١٧٥٠٣

